الفصل السادس

أثر الدين على الإنسان فى الدنيا والآخرة

وقد يجدر بنا فى هذا المقام بأن نعرض بشىء من السرد الوجيز للدور العظيم الذى لعبته الديانات والرسالات السماوية والمصطفين لتبليغها لخلاص الإنسان من أغلال التبعية والحقد والضغينة والشرور والكراهية والغضب والانغماس فى المتع المحرمة والاتجاه به إلى الإيمان والطهارة والتقوى والنقاء والمحبة والصفاء فتزدهر به حياته ويطيب مقامه فيها وينعم فيه بملكوت الله فى آخرته:

١ - كان "أخناتون" فى مصر القديمة يعلن أن الإله واحد.. ويقاوم تعدد الآلهة وعبادة الأوثان، ويناجى إلهه الواحد - آتون - بقوله:

(.. أنت جميل، وعظيم وملألئ ومشرق فوق كل أرض. وأشعتك تحيط بالأرضيين حتى نهاية جميع مخلوقاتك..).

وكان يناده الناس باسم الإله فيقول:

(.. لقد صنعتُ الرياح الأربع، لكى ينفس منها كل إنسان كزميله، وصنعتُ مياه الفيضان العظيمة، لكى يكون للفقير فيها حق كالعظيم.. ولقد صنعتُ كل إنسان مثل غيره من الناس..).

وكان يقول لهم:

(.. إن الصدق جميل، وقيمته خالدة- لا تتكلمن مع إنسان كذبًا، فذلك ما يمقته الله.. ولا تفصلن قلبك عن لسانك، حتى تكون كل طرقك ناجحة..).

وكان المفكر المصرى القديم آنئذ يملأ الأرض والبلاد هتافًا يقيم الحق والخير، داعيًا للعدل، والاستقامة والمساواة، والرحمة، ومبشرًا بالخلود فى الدار الآخرة.

٢ - وقبل الميلاد بثمان قرون، وتحت سفوح الهملايا فى شمال البنغال، كان فتى وسيم الطلعة، ريان الشباب، يرفل فى يكل ما تحفل به الدنيا من مناعم، ومطاعم ومباهج، ومسرات.. وذات يوم.. وهو يمتطى صهوة جواده، مزاولاً نزهته اليومية، أقحم القدر على طريقة بعض نماذج من البشر تنطوى على أسى ممض فاجع.. ولكأنما كان هذا المشهد،

نداء الغيب لـ "جوتاما" أو بوذا كما سيدعى بعد.. ففى أمسية ذلك اليوم، أنفذ فى هدوء وعزم، ما أسره فى نفسه ضحى.. وفى بهجة الليل، انساب كالأنفاس الوديعة من فراشه الوثير وقصره ودنياه الباذخة، وخرج ومعه خادمه، حتى إذا بلغا شاطئ النهر، قطع "بوذا" ذوائبه.. وخلع عنه ثيابه المترفة، وما يتحلى به من لؤلؤ وذهب وأعطاها جميعًا خادمه، وأمره بالعودة، بينما اتخذ سبيله إلى مناسك العابدين، شمال جبال "القنديا". وهناك شق على نفسه، وكلفها من العبادة ما يطيق وما لا يطيق وأسلمها لصيام مرير، وزهادة بالغة. بيد أنه لم يلبث أن اتهم نفسه بقتل نفسه.. ومن ثم فقد شرع يعتدل فى نسكه، وفى إخباته.

وفى ذات يوم.. رن فى روعه نفس الصوت الذى رن من قبل فى روع أخناتون ومن بعد فى روع كونفشيوس وسقراط.. الإشارة الإلهية.. أو الوحى.. أو الإلهام.. المهم أنه نداء يحس أصحابه أنه قادم من أعلى.. ومن وراء ما يحسون وما يبصرون.

وأصغى "بوذا" ثم أصغى، وأصغى، وأخيرًا، عاد يبث فى الناس حكمته ورؤاه. فماذا كانت هذه الحكمة؟

إننا نستطيع أن نجملها أو بالأحرى نوجزها فى جملة واحدة "أيها الناس، انبذوا الأنانية". إن "بوذا" يهتف بالإيثار وخدمة الآخرين. وهو لا يعتبر نفسه مسئولاً عن أن يعرف كثيرًا عن سر الإله.. بل هو مسئول عن أن يعرف كل شيء عن بؤس الإنسان..!! وهو يدعو الناس، لينبذوا أطماعهم، وأنانيتهم كى يجدوا "النرفانا" فى انتظارهم.

والنرفانا، عند بوذا هى حالة السمو والصفاء التى يجدها ويبلغها الذين يغادرون أنفسهم سعيًا وراء الحكمة والحق والذين يتفوقون على أنانيتهم ويبذلون من ذوات أنفسهم فى الخير العام.

(إنكم تجعلون ذواتكم سجونًا ضيقة مظلمة قاتلة، حين تعكفون على أنفسكم وحدها، وتعيشون لأنفسكم وحدها.. وإنى إذ أدعوكم إلى "النوفانا" لأدعوكم فى نفس اللحظة، إلى أن تحطموا عنكم أغلالكم - وتغادروا سجونكم التى تحتويكم داخل ظلماتها: عاونوا الآخرين، وابسطوا إليهم قلوبكم بالمودة، وأيديكم بالإيثار والرحمة..).

بمثل هذا، مضى بوذا يبشر، ويدعو متوسلاً بالمعرفة، وبالأمل مبشرًا المصفين إليه ببلوغ ذرى عالمهم المنشود.. عالم النرفانا.

٣ - **وفى نفس الزمان... كان هناك فى الصين رائد جليل يقول:** (.. حياتى هى صلاتى..) إنه "كونفشيوس".. حصر جهده فى تجديد حياة الناس، وضبط سلوكهم وفق

مـا يختاره لهم من عادات، عرف، وتقاليد. ولقـد هجر وظيفته. إلى "دار الحكمة" التى أنشـأها فى ولاية "لو". وظل ينضج فكره، ويجمع نفسـه. ويحاول اكتشاف دوره. حتى أفضـى إلى ما يريـد - وهناك خرج إلى الناس بتعاليـم، كل غرضها خلق الرجل النبيل الطاهر العادل نظيف اليد حسـن السـلوك الأنيق فى تصرفاته وفى حركاته السوى فى سيره وطريقة نومه وطريقة حديثه.. وفى حياته كلها. وحين يزخر الوطن بهذا الطراز من أبنائه، يصير قادرًا على صنع نفسه بالصبغة التى يريدها له "كونفشيوس". وحين تنجـح التجربة داخـل الصين، تصدر إلى خارجها... وهكذا يقر "كونفشـيوس" عينًا ويهـدأ بالاً بتعاليمه تجاه افتقاد العدالة وفوضى السـلوك والنظـم التى تؤرقه كثيرًا، والتى قال عنها ذات مرة: (.. إن هذه الفوضى التى تعم الدنيا، هى الشىء الذى يحتاج إلى جهودى..).

٤ - كذلك كان هناك أنبياء الشرق الأدنى.. يجوبون القفار والنجوع، هاتفين بالصلاة، وبالبر، وبالتقوى وبالتضحية.. منقضين بغضبهم الصاعق على الظالم والاستغلال واحتكار الثروات:

(.. من أجل أنكم تدوسون المسكين.. وتأخذون منه هدية قمح.. بنيتم بيوتًا من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها، وغرستم كرومًا شهية ولا تشربون منها..).

(.. ويل للمستريحين فى صهيون.. أنتم المضطجعون على أسرة من العاج... والمتمددون علـى الفرش، والآكلون خرافًا من الغنم، وعجولاً من وسـط الصيرة... الهادرون مع صوت الرَّباب، الشاربون من كؤوس الخمر..).

(.. كرهت أعيادكم، حتى تدعو الحق يجرى كالمياه، والبر يجرى كنهر دائم..).

٥ - ولا يـكاد هذا الهدير يهدأ ويكـف، حتى يجلجل فى الأفق. وبين الروابى وفوق السـنوح نذير جديد يهتف به "أشـعياء": (.. مالكم تسحقون شعبى، وتطحنون وجوه البائسين..؟).

(.. ويل للذين يصلون بيتًا ببيت.. ويقرنون حقلاً بحقل، حتى لم يبق موضع، فصرتم تسكنون وحدكم فى شطر الأرض..).

(.. ويل للذين يقضون أقضية الباطل، وللكتبة الذين يسجلون زورًا، ليصدوا الضعفاء عن الحكم، ويسلبوا حق بائسى شعبى.. لتكون الأرامل غنيمتهم، وينهبوا الأيتام..).

يقول الرب: (.. اغتسـلوا.. تنقوا.. كفوا عن فعل الشـر.. تعلموا فعل الخير، اطلبوا الحق، أنصفوا أقضوا لليتم، حاموا عن الأرملة..).

٦ – **وقبل الميلاد بخمسة قرون ازدهرت "أثينا" برجلها المضىء، وتحولت بذكائه الثاقب، وروحه الحى، إلى حديقة زاخرة بثمار المعرفة وقطوفها الدانيات.. إنه سقراط أبو الفلسفة**، الذى زلزل سكينة العقول الهاجعة بسؤاليه الدائبين: كيف..؟ ولماذا..؟ مطلقًا عقله المحص الجواب، يفض مغاليق الأسرار، ويناقش المسلمات... يواصل تقدمه خطوة، خطوة. وفى الجموع سر غامض يدعوها لتفسح له الطريق، حتى إذا شقها صفين طويلين، وأشرف على وجودها بادر الوجوه – على سبيل المثال – بسؤال:

– لماذا لا تبحثون عن الخير؟

– لأنا نعرفه، يا سقراط.

– إذن، فلماذا ما دمتم تعرفونه، لا تفعلونه..؟

– أليس يكفى أن نكون خبراء فى حذقه يا سقراط..؟

– **كلا! ليس الخير من يعرفه، بل من يملكه..!!**

– ثم إنى أشك فى مجرد خبرتكم به، ومعرفتكم له.. فهل تعرفونه حقًا..؟

– أجل، أجل. نعرفه كما نعرف أنفسنا.

– إذن، فأنتم تعرفون الغرض الحقيقى لحياتكم..؟

– نعم.. أن نعيش، يا سقراط.

– لكن البهائم تعيش.

– نعيش عيشة صالحة، يا سقراط.

وصاح سقراط وسط لجة من الحبور:

حسن هذا.. حسن كثيرًا.. وإذن، تعالوا نعرف ما هى الحياة الصالحة.. فعندئذ – فيما أظن – سنكون قادرين على أن نعرف ما هو الخير. ثم أخذه ما يشبه الرعواء، فحنى رأسه قليلاً وأسبل جفنيه، وبعد حين عاد إلى وضعه الأول، ليقول لهم:

(.. إنها الإشارة الآلهية تعاودني.. إنها تأمرنى أن أتعاون معكم على معرفة الحق؛ لأنه لا سبيل للعمل به قبل معرفته..).

ولقد دفعته هذه الإشارات الإلهية – على حد قوله ووصفه لمن حوله – يجوب شوارع أثينا وأنديتها آناء الليل وأطراف النهار يناقش الناس فى كل شىء، ويدير الحوار فى غير تهيب، حول الألوهية، والفضيلة، ماقتًا الشر والظلم والعدوان **مناديًا بالحق والخير والجمال لسمو الروح والعقل والوجدان**.. ثم لا يفتأ أن يذكر من حوله بأننا نحمل داخل

ذواتنا شــيئًا، هو أثمن ممتلكاتنا.. شــيئًا عظيمًا وقويمًا ينتظر منا أن نعرفه ونجيد معرفته لأننا لســنا هملا، ولا نتاج المصادفات، بل نحن أبناء مشيئة كبرى خلقتنا لغرض كبير.. ونقطة البدء فى مسارنا الطويل هى معرفة أنفسنا.

ومضى سقراط خطوات هادئة واثقة خطوة بخطوة يلقح العقل الإنساني، ويهدى القلوب، حتى جاء اليوم الذى شــق فيه على مفســدى الأرض تحمل وطأته الجليلة.. فتقدم بعضهم كى يضعوا الختام اللائق لحياة باهرة، يراد لها من بارئها أن تكون مثالاً يحتذى، ومشعلا يهدى إلى خير ما فى الحياة من فضائل باقية: الصدق. والبذل والمثابرة.

واجتمع قضاة أثينا ليحاكموا أبا الفلسفة والمفكر العظيم بـ**تهمتى الهجوم على الآلهة وإفساد الشباب وساق الاتهام كل ما استطاع حشده من فنون الإفك وصنوفه.**

وتقــدم الإنســان الصادق، البــاذل، المثابر، وانفجرت شــفتاه الغليظتــان فى غير بطء هذه المرة.. كأن صاحبهما يعانى شــوقًا إلى مصيره الــذى **أسماه الناس الموت، وأسماه هو الانتقال، أو السفر.**

وفى هذه اللحظات أكثر من سواها، وجد سقراط حقيقته وعرفها فأراد – قبل أن يمضى – أن يلخص للإنسانية كل دوره ومهمته وأن ينفخ فى هذا الدور من روحه الخليق بالخلود ليبقى دوره حيا من بعده. يمشى فى الدروب مثلما كان يمشى.. يتحدث إلى الناس – على مر الزمان – الذين طالما تحدث إليهم.. ملقيًا نفس الأسئلة.. ومؤديًا ذات الرسالة التى كان صاحبها يؤديها حيًا.

هنالك تقدم فى ثبات وثقة أزعجا خصومه، وقال من ضمن ما قال:

(.. يا قضاة أثينا.. كم كان ســلوكى ســيبدو سيئًا، لو أننى عصيت الله فيما أعتقد أنه يأمرنى به، فنكصت عن أداء رســالة الفلســفة، وتوقفت عن دراسة نفسى ودراسة الناس. وفــررت مما كلفنى به خشــية الموت.. وأنــا الذى حين طلب منى القــواد فى "بوتيديا" و"دليوم" أن ألزم موضعى لزمته، وواجهت الخطر والموت.

أيهــا الأثينيون: إنى أمجدكــم وأحبكم. ولكن لأنى أطيع الله أكثــر مما أطيعكم، فلن أدع الفلســفة ما دمت حيًا. ســأواصل أداء رسالتي. سأدنو من كل من يصادفنى فى الطريق وأهيب به قائلاً:

ألا تخجــل يا صــاح من إنكبابك علــى طلب الجــاه والثروة. وانصرافــك عن الحق والحكمة.. وعن كل ما يسمو بروحك..).

"إن من يحارب مخلصًا فى سبيل الحق، لن يمتد به الأجل إلى حين، ومن أجل هذا، فأنا لا أخاف الموت.. أجل إنى لا أخافه، ولا أعرف طعمه. ولعله شـيء جميل. غير أنى على يقين من أن هجران واجبى. شـيء قبيح.. **ولذا فحين أخير بين الموت الذى يحتمل أن يكون جميلاً، وترك الواجب الذى هو من غير شـك قبيح، فإنى لا أتردد فى اختيار الأول فورًا..".**

"إن الخير الأعظم لكم، لهو أن تتركونى أواصل رسالتي. أما إذا أردتم تبرئتى على أن أترك البحث عن الخير وعن الحق فسيكون جوابى: أنا شاكر لكم أيها الأثينيون.. ولكنى أوثر طاعة الله الذى أعتقد أنه ألقى على كاهلى هذا العبء الجليل".

ويحكم على سـقراط بالمـوت.. وتتهيأ له فرصة الفرار والنجـاة إذ يخبره تلاميذه وهم يجلسـون إليه داخل سجنه بأنهم أعطوا السـجان رشوة وافق بعدها على تهريبه.. وكأنما حسـبوا أنهم يزفون إليه بشرى.. وما كادوا يفرعون من حديثهم، حتى مضى على طريقته يفند رأيهم فى أناة، كأنه معلم فى مدرسة. وقته متسع، وفرصته مواتية..! وليس محكومًا عليه بالإعدام، سيعطى بعد حين قريب كأس السم ليتجرعه، ويسيغه..!!

– ".. ولكـن لماذا أهرب يا– أقريطون– من الموت؟ طبعًا لأظفر بالحياة.. حسـن هذا. وإذن فلنبدأ أن نعرف الحياة..؟".

ثـم ينثال حديثه الواثق العذب ليخبرهم أن مجـرد الحياة، أمر يعنى الرجل العاقل.. وإنما تهمه فقط، الحياة التى تلتزم الصواب. فهل الهروب صواب..؟

".. ثـم كيف أسـتطيع – يا أقريطون – إذا ارتكبت رذيلـة الجبن، أن أتحدث عن فضيلة الشـجاعة"..؟! ويقتنـع تلامذته. بل يخجلون.. وحين يسـألونه، على أى نمط يحب أن يدفن؟

يجيبهم: "على أى نمط تشاءون. **إنكم ستدفنون الجسد وحده. أما الروح. فذاهبة إلى مكان يبعث فيها السرور. هناك بين المباركين..!**.. لن أمكث بعد مماتى"..

وفى الميقات المعلوم. يجاء له بكأس صغير، تحمل فى ذؤبها، منيته. فيأخذها بيد ثابتة، ويدفعها إلى فمه... ثم يتمهل قليلاً ريثما يدعو **"اللهم اجعلها رحلة مباركة سـعيدة"**..

ويتجرع السم ويموت سقراط..! أو على حد تعبيره هو: يموت جسد سقراط..!

لقد كان سـقراط، رجل عقل يسـتعمل عقله فى أوسـع نطاق.. ويدعو الناس لاستعمال عقولهم. محتويًا فى ذلك كل ما للعقل من حق فى المناقشة والمعارضة. بل وفى الشك.. ومع

هذا.. فهو يصغى كثيرًا لصوت آخر غير صوت العقل. هذا الذى أسماه "الإشـارة الإلهية" أو "الإشارة المقدسة" أى أن الفيلسوف الذى جعل العقل مصدر تفكيره.. قد جعل الوحى أو الإلهام الضاغط موضع احترامه وتلبيته، فهو أيضًا يفسـر الحياة تفسيرًا دينيًا، فليست دنيانا هذه هى المنتهي.. بل واحة فى الطريق. وليسـت نهايته. ويفسر الموت بمثل ذلك، فهو عنده دفن للجسـد وحده، أما الروح فلها الخلود فى عالم يسـر الصالحين. وهو يحس للموتى قيامًا وبعثًا.. ينهضون من قبورهم ليسـتأنفوا رحلتهم وحياتهم. وهو قبل ذلك يؤمن بألوهية قادرة طيبة، تدعو الناس إلى معرفة الحق وفعل الخير.

إن جميع القيم التى والاها سـقراط، وآمن بها وبشـرَّ.. كالحـق، والخير، والجمال.. لا تزال، وستظل خالدة صادقة، شامخة، لا يزيدها العلم إلا ألقًا وقوة. **فلم لا يكون الإيمان كذلك، سيما والعلم لم يستطع أن يصل إلى نقيضه بل على العكس فكل ما وصل إليه أكده ما ورد فى القرآن الكريم منذ ما يناهز خمسة عشر قرنًا من الزمان.**

٧ - والآن اقتربـا فـى خشـوع وتقوي، ويفتح البـاب الكبير ليخرج منـه إلينا.. وإلى الإنسـانية جمعاء أخوان حميدان.. جاءا يلخصان دعوة الخير كلها. ويعطيانها فى إطارها الدينى. تعبيره النهائى.. ها هما وقد قدما فى ضياءهما الباهر المسـيح عيسـى بن مريم ابن الإنسان.. ورسول الله محمد ﷺ رحمة الله للعالمين..

أما المسيح عليه السلام فليخص لنا كل فلسفات المحبة، ودياناتها، ورؤاها.. ويمنحنا إياها فى تركيز حاسم.. ودعوة ميسرة فى سلوك وديع..

وأما رسـول الله محمد ﷺ فسـينفض عن الإنسـان آخر أغلال التبعية، والخضوع، ويعلن فى شمول واع حقيقة التوحيد.. وشريعة الله الوضاءة على الأرض من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحض على الخير بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة.

وهكذا تتلقى البشـرية منهما، آخر دروس أعدادها، وتتسلم وثيقة رشدها، لتمضى بعد هذا فى طريق الحياة شـجاعة مبصرة.. تجربة الوحى فى قلبها، ونور العقل فى رأسـها.. والصراط المستقيم واضح أمامها والخير كل الخير هدفها.

وفى قرى ظالمة لنفسـها، صاخبة شـهواتها، سـار كل منهما عفا نقيًا.. وأمام مكايد اليهودية المتآمرة الغادرة، **وقف الرسولان يتحديان رجسها، ويكابدان بأسها!**

وأريد للمسـيح عليه السلام أن تنتهى حياته الطاهرة على صورة تشبع الأحقاد الملعونة الملتاثة، لخراف إسـرائيل الضالة.! وأريد للرسول ﷺ، أن تنتهى حياته أيضًا بسبب من

غدر اليهودية المتآمرة دوما على خير الإنسانية فدست امرأة يهودية السم فى طعامه! وقال "المسـيح" حين أحاط به لؤم الكهنة وكيد الكائدين: "اغفر لهم يا أبتاه، لأنهم لا يعلمون ما يفعلـون" وقال "الرسـول" ودمه يتفجر تحت قسـوة الحجارة التـى يقذف بها من كل جانب: "اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون". فالمسـيح ومثله الرسـول صلوات الله عليهما وسلامه، لم يجيئا ليوقدا شموعهما فى أورشليم وفى مكة وحدهما، بل جاءا فى مركز الكرة الأرضية ليوقدا شموعهما للعالم كله وللإنسانية جمعاء.

ولقد كانا على وجدان بهذه الحقيقة. قال المسيح عليه السلام: "جئت لأخلص العالم". وقال الرسـول ﷺ: ".. إن الله أرسـلنى للناس كافة.. وأرسـلنى رحمة للعالمين.." ولقد حدث هذا فعلاً، ولم تبق دعوتهما داخل القرى الصغيرة، بل تفتحت لها أبواب القارات، ولا تزال الديانتان تغمران الأرض. وهذا شيء طبيعى، فللأفكار أجنحة تطير بها وقوة على النفاذ والاختراق أكثر مما لأعتى الجيوش.. سيما تلك الأفكار الصادقة الكبيرة التى تحمل أمانى للبشر، وتحقق لهم من احتياجاتهم ما هم إليه مشوقون.

ونفس الصوت الذى سمعه الرسـول محمد ﷺ بعد ستة قرون من دعوة المسيح يرن فى روعه رنين الصدق بوحى من العلى القدير هاتفًا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ
﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى
وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ
أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ
قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة المدثر].

فإن نفس الصوت قد رن فى روع المسيح قائلاً:

"أنت ابنى الحبيب الذى به سررت.. للرب آلهك تسجد وإياه وحده تعبد".

وليـس هنـاك ذرة من ريب فـى صدق الحس الذى تلقى به الرسـول ﷺ كلمات ربه. ولا ذرة مـن ريب فى صدق الحس الذى تلقى به المسـيح نداء ربـه فليس فى حياتهما أثر – أى أثر – لتصنع أو ادعاء.

حتى كلمة "ابنى" فى عبارة المسيح لم تزغ عن مكانها، فنحن جميعًا أبناء الله، بمعنى أننـا خلقـه.. وأبوته لنا لا تعنى تلافى الأبوة الوالدة التـى نعرفها "دفاتر المواليد" بل هى

أبـوة الخالق الأعظم العلى القدير وها هو الرسـول ﷺ يسـتعمل فـى هذا المعنى المجازى نفـس التعبير تقريبًا فيقول: (.. **الخلق عيال الله.. وأحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله**..) أخرجه البخارى ومسـلم، بل وسنسـمعه يقول: "يقول الله عز وجل: "لا تسـبوا الدهر، فأنا الدهر".

فهل الله حقًا هو الدهر، بالمفهوم الحرفى لكلمة دهر..؟؟ لا.. وإنما هو سبحانه الدهر.. بمعنى أنه القوة الكبرى المسيطرة والمبثوثة بمشيئتها فى كل مكان وزمان... والتى ينبثق من خلال رحمتها، وقدرتها أسباب الحياة وطاقاتها.

وكذلك وصف الله بالأبوة فهو الذى وسعت رحمته كل شيء والتى تشملنا وتسعنا جميعًا بحنانها وبرها وغفرانها.

أجل.. جميعًا.. صالحنا، وطالحنا، قوينا، وضعيفنا.. وفيما وراء هذا، نلتقى بالمسيح، ينعت نفسه كثيرًا بأنه "ابن الإنسان" بيد أن "ابن الإنسان" هذا، لم يعرف فؤاده الذكى أية تخوم فاصلة بين الأب، والرب.. لقد تخطى حدود النسب الأرضى، وجاوزها جميعًا.

حتـى أمـه، حين يقال له ذات يوم: إنها بالباب تريدك، يجيب: من هى أمى، ومن هم أخوتى..؟؟ "إخوتى، وأمى هم من يعملون مشيئة الرب".

والأبوة الإلهية قد وردت فى مواضع من كتب الأنبياء، فجاء فى سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله "وأن أبناء الله رأوا بنات الناس حسنات فاتخذوا منهن زوجات" (٦ تكوين).

وورد فى كلام موسى عليه السلام أن بنى إسرائيل جميعًا أبناء الله حين قال لفرعون: "دع ابنى يخرج" ووردت بهذا المعنى فى كتب أخرى كسفر التثنية حيث جاء فيه: "أنتم أبناء الله" (تثنية ١٤) وأشـير إلى الشـعب كله بأنهم أبناؤه وبناته (٣٢ تثنية).. ووردت كذلك أكثر من مرة فى المزامير حيث قيل: "قدموا للرب يا أبناء الله" (٣٩) و"من يشـبه الرب بين أبناء الله" (٨٩).

وكذلك وردت فى هوشع وجاء فيه من خطاب الشعب: (.. أنتم أبناء الله الحى..).

أما العهد الجديد فمخاطبة الله فيه باسم الأب وردت كما تقدم فى الصلاة التى تبتدئ بدعاء الله "آبانا الذى فى السموات" وحيث قال السيد المسيح للتلاميذ: "إن أباكم واحد هو الذى فى السموات" وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد، وكل ولادة للروح فهى بنوة لله "بالمعنى المجازى".

لقد نما القبس الإلهى، المعطى لكل إنسان، قد نما فى المسيح، وتفوق وانتشر، حتى ملأ وجوده كله، ولم يبصر فى ضيائه الباهر سواه.. حتى أمه التى ولدته، وحتى إخوته. ارتفعت روابطه بهم إلى مستويات عالية من الواجبات العامة الكبيرة التى تجعل من جميع البشر إخوة له، ومن جميع الأمهات أما.. ومن وراء هذا كله، أبرهم السماوي.. ربه الذى أرسله، كما قال هو ليجبر منكسرى القلوب ويطلق الأسارى من القيود. وفى هذا المعنى ومن منطلقه كان يوصى أتباعه وحواريه أن يبداوا صلواتهم ودعائهم بترديد "آبانا الذى فى السموات"..

وحين نعود إلى الصحراء العارية.. إلى الكهوف والخيام والبادية.. إلى مكة التى تجتمع فيها دنيا الخمر والميسر والأصنام والأزلام.. وصهيل السادة.. وثغاء العبيد.. وصياح المخمورين الذين أضناهم طول السهر فى غرف العاهرات نسمع صوتًا جديدًا يلقى حديثًا عجبًا.. **وينصر إنسانًا جديدًا على خلق عظيم يذرع الوجود فى رفق وأناة.. إنه الأمين محمد رسول الله "أجود الناس كفا.. وأجدأهم صدورًا.. وأصدقهم لهجة.. وأوفاهم ذمة.. وألينهم عريكة..** وأكرمهم عشرة".. إنه قائم بين نفر يصفون إليه هناك.. فى ذلك المكان البعيد عن أعين الرقباء يحدثهم عن الله الواحد الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد الذى ليس كمثله شيء "والذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف". ويتحلق حوله حراس القديم وعُبَّاد الأصنام، فيهمس إليهم: "يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم.. ولى دين".. تعايش سلمى يدعو إليه رسول الله للإنسانية جمعاء من منطلق قاعدة من أبرز قواعد رسالته السامية (لا إكراه فى الدين. قد تبين الغى من الرشد..) و (.. كل نفس بما كسبت رهينة..).

وهكذا يلتقى "الرسول" بدوره. ويحمل الأمانة الكبري. ويمضى بها فى حذر أول الأمر.. ثم يجهر بها ويصدع حين يقول له ربه الذى اختاره واصطفاه:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [سورة الحجر].

ولسوف يواجه من الكيد، ومن العناد ما يزيده إصرارًا وعزمًا، ولسوف ينتصر فى معركة الإغراء بالملك والمال، انتصارًا نبيلاً، تاركًا كلماته الهادية العظيمة، درسًا فى التاريخ للقيم والأخلاق والمبادئ لا يرتجف ضياؤه: (.. والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله أو أهلك دونه..).

سيدعو بالحكمة والموعظة الحسنة... طبقًا لقوله الله جل وعلا:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [سورة النحل]..

فإذا أحاطت به العداوات الباغية فى مكة، هاجر بدعوته إلى المدينة. إذا اضطره أعداء الحياة الجديدة الطاهرة، العادلة التى يبشر بها إلى القتال، قاتلهم غير معتد، ولا مسرف.. فإذا أظفره الله بهم أخيرًا سارع إليهم بالنجدة وبالأمن مطمئنًا إياهم بقوله: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

لقد رفض المسيح عليه السلام ملك اليهود، كما رفض الإذعان لإرهاب رؤسائهم، وطلب إليهم أن يخلوا بينه وبين كلمة الله والمرسل من قبل الله عز وجل لتبليغها:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة المائدة].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾﴾ [سورة آل عمران].

وما الأمر الذى آثر محمد رسول الله تبليغه على ملك يحده الشمس والقمر؟

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿..وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنبياء].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾﴾ [سورة الإخلاص].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة سبأ].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة فاطر].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿..يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ [سورة المتحنة].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾﴾ سورة النساء].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾ [سورة الأحزاب].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة الأنبياء].

لقد بشر الأخوان المسيح عليه السلام ومحمد ﷺ كثيرًا بمثوبة الله.. وخوفا كثيرًا من عقابه.. وأذنا فى الناس بشعائر ومناسك وعبادات ووصايا ومواعظ.. وجهتها بعد توحيد الواحد الأحد. إنها من الإنسان.. الإنسان.. هذا الاسم، ذو الرنين الصادق.. المثير.. هذا الكائن، الذين أؤتمن على كل أمانات الحياة وواجباتها.. هذا المسافر، الذين لا يضع عصاه عن كاهله لحظة، والذى يولى وجهه دومًا شطر كمال بعيد.. هذا الإنسان، فى علمه وجهله.. فى ثرائه وفقره.. فى حريته وأغلاله.. فى تقواه وفجوره.. فى صحته وسقمه.. فى ألمه وأمله.. فى عظمته وبؤسه.

لقد أراد العلى القدير من الأخوين أن يبلغا رسـالتيهما العظميتين للإنسـان ليجعل منه مؤمنًا تقيًا خيرًا صادقًا محسنًا طاهرًا نقيًا يأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى فتزدهـر الحيـاة الدنيا ويطيب فيها مقامه وينعم بآخرته فى ملكوت الله بما عمل فى دنياه من أعمال طيبة صالحة محبة فى الله وطاعة له.

وأول ما يبهرنا فى عنايتهما بالإنسان ذلك الترديد المحض لاسمه والحفاوة الصادقة به – فالمسيح ينعت نفسه بأنه "ابن الإنسان" ويكررها مرارًا وتكرارًا ومن ذلك:

(.. إن – ابن الإنسان – لم يأت ليهلك أنفس الناس، بل ليخلص..).

(.. ها نحن صاعدون إلى أورشليم – ابن الإنسان – يسلم إلى رؤساء الكهنة..).

(.. لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان – أتيًا..).

(.. ومن قال كلمة على – ابن الإنسان – يغفر له..).

(.. إن للثعالب أوجره ولطيور السـماء أو كاراً وأما ابن الإنسـان – فليس له أين يسند رأسه..).

(.. لا تعرفون اليوم ولا الساعة التى يأتى فيها – ابن الإنسان..).

(.. إن – ابن الإنسان – ماض، كما هو مكتوب عنه..).

(.. كما فى أيام نوح كذلك يكون فى أيام – ابن الإنسان..).

(.. كذلك يكون – ابن الإنسان – أيضًا لهذا الجيل..).

(.. فاستعدوا أنتم كذلك لأنه فى ساعة لا تخطر لكم يأتى – ابن الإنسان..).

(.. إن ابن الإنسان – نفسه لا يعلم باليوم والساعة..).

ويحدثنـا القرآن الكريم المنزل من العلى القدير بالروح الأمين على قلب المصطفى الأمين عليه الصلاة والسلام عن الإنسان. **فيعطه صفته الحقة، كمحور لنشاط النبى، وأحد أهم الموضوعات لجوهر رسالته:**

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [سورة التين].

﴿..أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [سورة مريم].

﴿..إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [سورة المعارج].

﴿..إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [سورة العلق].

ويقول أستاذنا العقاد رحمه الله فى هذا الخصوص فى مؤلفه "المسيح":

(.. لقد كانت كل أسـرة يهودية تتمنى فى ذلك العصر أن يخرج منها المسـيح المنتظر، وقد سمى الطفل "يسـوع" أو "يهوشـع" على هذا الأمل، لأن الاسـم مركب من كلمتين تفيدان معنى سـعى "يهوا" أو نجدة "يهوا" أو خلاص "يهوا" فتربى الطفل تربية دينية خالصة، ولا يصعب علينا تعليل سفر الأسرة إلى بيت لحم عند مولده، لأنها تنتظر المعجزة هناك، حيث ورد فى أسـفار من النبوءات أن بيت لحم مولد المسـيح الموعود، لأنها موطن داود..).

ويقول:

(.. أما ابن الإنسان فقد وردت فى كتب العهد القديم باللغة الآرامية، وباللغة العبرية، وهى بالآرامية "بارناشـا" من بار بمعنى ابن.. وناش بمعنى إنسـان، وهى بالعبرية "ابن آدم" وتطلق فى كلتا اللغتين على الإنسان الخالص أو على الإنسان من حيث هو نوع يقابل أنواع الأحياء **وقد وردت تسـعين مرة فى سـفر حزقيال حيث يخاطب النبى باسم "ابن الإنسان"**.. أما كتب العهد الجديد فقد وردت فى مواضع منها بمعنى الإنسان ومنها قول السـيد المسـيح فى إنجيل متى كل خطيئة وتجديف يغفر للناس، ومن قال كلمة على ابن الإنسـان يغفـر له، وأما مـن قال على الروح القدس فلن يغفر لـه لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآتى..) (١٢).

وقد جاءت مرادفة أحيانًا لضمير المتكلم "أنا" حين يتكلم السـيد المسيح عن نفسه، فجـاء فى لوقـا ١٢: (".. كل من اعترف بـى قدام الناس يعترف به ابن الإنسـان قدام ملائكة الله.."

وجاء فى متى ١٦: (.. أنه لما جاء يسوع إلى نواحى قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلاً: من يقول الناس أنى إنا؟).

وورد فى مرقس ٨: (.. ثم خرج يسـوع وتلاميذه إلى قرى قيصرية فيلبس وفى الطريق سأل تلاميذه من يقول الناس أنى أنا؟). فهى فى بعض الأناجيل مرادفة أو بديل من ضمير المتكلم حين يتكلم السيد عن نفسه.

﴿.. وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة الإسراء].

﴿.. فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الزمر].

﴿.. وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الكهف].

﴿..وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ﴿١١﴾﴾ [سورة الإسراء].

﴿.. إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الأحزاب].

ولأن الأخوين بعثا من أجل الإنسان.. كان إنسانين.. كانا رجلين من البشر.. اثنين من عباد الله ومن أولاد آدم الكرام الأخيار المصطفين.. كانا يأكلان الطعام ويمشيان فى الأسواق.. ولم يجيئا ملكين.. لم يجيئا من عالم غير عالمنا، ولا من طبيعة غير طبيعتنا، بل لم يخلقوا فى خلق يغاير خلقنا:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [سورة الإسراء].

هكذا يقول العلى القدير سبحانه، وهو لم ينزل ملكًا، لأن الإنسان الصامد أمام تجربة الحياة.. وحمل أمانة الوجود بعد أن أشفق من حملها، وتنحى عنها خلائق كثيرة كانت تسير معه فى سباق التطور العظيم.. إذن.. **الإنسان هذا خليق بأن يتلقى من نفسه الدرس والمثل.. وإذن، فلتأته رسله منه..**

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [سورة التوبة].

ومن هنا يبدأ توقير المسيح ومحمد عليهما صلوات الله وسلامه للإنسان.. يبدأ من إمعانهما الكبير فى توكيد بشريتهما وإعلان إنسانيتهما، ووضع وجودهما– دوما.. ولقد كانا، وهما يرفضان الشطط فى أطرائهما.. والغلو فى توقيرهما.. إنما يقرران القيمة الحقة للإنسان.. وكأنهما يذكران من يحاول سلخهما من بشريتهما:

"أى مقام هناك أسمى، وأعظم، تريد أن تذهب بنا إليه..؟!!.. وماذا فوق الإنسان من خلق..؟ الملائكة مثلاً..؟.. إنهم فى خدمة الإنسان الكادح..

وحين أراد الله جل وعلا أن يصطفى لنفسه خلفاء فى الأرض، تعالت ترنيمات الملائكة، ضارعة مبتهلة أن يكونوا أصحاب الحظ فى هذا الاصطفاء.. لكن الله رمق "الإنسان" بعين

حانية، وأشار نحوه فى حب غامر وقال: هذا هو الخليفة..

إذن فالإنسانية، هى الجنسية المشرفة التى تحملها المسيح، ويحملها أخوه محمد رسول الله وهما بها فخورين المسيح يقول ويكرر كثيرًا بأنه "ابن الإنسان" ورسول الله محمد يقول: أنا بشر مثلكم. ويؤكدان هذا المعنى أكثر وأكثر. **حين ينهر المسيح من أطرى صلاحه فيقول له:**

(.. من قال إنى صالح؟! ليس من أحد صالح سوى واحد، هو الله..).

وينهى الرسول ﷺ أصحابه حين يقولون له أنت سيدنا ويقول لهم: "لست سيدًا لأحد، ونما أنا عبد الله ورسوله..".

أكانت هذه المشابهة عفو الصدفة، أم هى ثمرة شىء يشبه القانون العام يضع على شاكلته هذا الطراز الجليل من الهداة..؟!

لقد كان موقفهما من الإنسان العادى الذى لا حول له من مال. أو جاه، أو منصب، المستضعف، الذى طالما يتخذ ظهره مرعى لسياط الطغاة.. الكادح، الذى طالما يصطنع عرقه نبيذًا، يكرعه الجناة..! يبهر الألباب لقد جذباه ليأخذ مكانه فى الصف الأول فى الوقت الذى ينهالان فيه على كبرياء الأشراف الكاذبة، فيمحقانها محقًا.. ولنبدأ بالمسيح عليه السلام وهو واقف وسط هالة من صفاء روحه وفى يمينه سفر "أشعيا" يقرأ منه:

.."روح الرب مسحني، لأبشر المساكين".. ".. أرسلنى لأشفى منكسرى القلوب".. ".. لأنادى للمأسورين بالانطلاق".. "وللعمى بالبصر".. ".. وأرسل المنسحقين فى الحرية.."

وهنا أيضًا.. أطل من بين الحشود **الحافة حوله ليقول:**

"طوباكم أيها المساكين، لأن لكم ملكوت الله".

"طوباكم أيها الجياع الآن، لأنكم ستشبعون".

"طوباكم أيها الباكون الآن، لأنكم ستضحكون".

وفى سخرية ماحقة يبدأ حملته ليقول:

(.. على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون..! فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه.. ولكن حسب أعمالهم لا تعلموا.. لأنهم يقولون ما لا يفعلون..).

ونبعث همهمة استنكار من جانب السادة ولكنها تتلاشى سريعًا فى خضم الإعجاب الذى جاء من جانب الحشود ويستأنف حديثه عن أشراف "أورشليم" المثلين أمامه فى الكهنة والكتبة والفريسيين **فيقول:**

(.. إنهم يحزمون أحمالاً ثقيلة، عسرة الحمل، ويضعونها على أكتاف الناس.. وهم لا يريدون أن يحركوها بأصابعهم.. وكل أعمالهم يعملونها لكى ينظرهم الناس.. فيعرضون عصائبهم، ويعظمون أهداب ثيابهم... ويحبون المتكأ... الأول فى الولائم.. والمجالس الأولى فى المجامع... والتحيات فى الأسواق.. وأن يدعوهم الناس، سيدى.. سيدى).

ثم يندفع صوته فى هدير حار، ومتوهج... وتتعلق أبصار الجموع بكلماته كأنها الحمى، والنجدة والملاذ:

(.. ولكن ويل لكم، أيها الكتبة والفريسيون المراؤون، لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس، فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون..!).

(.. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون.. لأنكم تأكلون بيوت الأرامل، ولعلة تطيلون صلواتكم.. لذلك تأخذون دينونة أعظم).

والتجربة لدى محمد رسول الله ﷺ رائعة وحاسمة.. إذ تشهد فيها الرسول ﷺ نفسه وهو يتلقى من ربه عز وجل خطة العمل، والنهج الذى يحدد واجبه تجاه الإنسان العادى البسيط.. فعندما أذاع الرسول ﷺ دعوته، اقترب منه الفقراء، والمستضعفون شأن كل دعوة حية، طالعة، **فذات يوم، طرق باب الرسول ﷺ مبعوث لأشراف مكة وكبرائها يقول له:**

(.. يا محمد، إن أشراف قومك يرون أن يستمعوا لك. ولكنهم لن يجلسوا مع صعاليك مكة وفقرائها.. فإن شئت أن تجعل لهم يومًا، ولأتباعك يومًا..).

والرسول بطبعه لا يحمل فى نفسه، ولا فى تفكيره، ولا فى سلوكه، أدنى اعتبار لمثل هذا التمايز. وهو إذن لا يرى بأسًا فى أن يجيب هذه الرغبة حتى يريح الإيمان والفضيلة، تلك النفوس الشاردة، وعندئذ سيبحث هؤلاء أنفسهم عن الفقراء والصعاليك ليجالسوهم، ويزاملوهم بعد أن تلين قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ويطلب الرسول ﷺ إلى الرجل أن يعود إليه فى غد، حيث يكون قد فكر فى الأمر.. أو يكون قد جاءه من الله وحى، وفى غد يرجع مبعوث الأشراف فى ميعاده، ليتلقى من الرسول ﷺ رفضًا أكيدًا.. فماذا حدث..؟ لقد جاءت كلمات الله تحمل للرجل العادى البسيط الفقير أعظم تكريم. ألم يكن السادة يريدون لأنفسهم مجلسًا غير مجلس الناس العاديين..؟؟.. لا.. لن يكون لهم ذلك أبدًا.. **فقد حسم الوحي ذلك بقوله جل وعلا:**

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الكهف].

ولو أمعنا النظر كبشر.. في رغبة السادة هذه.. نجد أنها لو تحققت.. فقد لا يترتب علـى تحقيقهـا ضياع حق للآخرين.. ثم أنها قد تقضـى بقوم ضالين إلى الهداية والخير.. وعلى الرغم من هذا، يرفضها العلى القدير فى حسم، ويعتبرها من زينة الحياة الدنيا التى لا ينبغى لرسـول أن يريدها..! إن روعة هذا المشـهد تتمثل فى الكشف عن مكانة الرجل العـادى فـى عين الله.. وفى تبيانها غيرة الله على ذل الإنسـان العادى أن الله سـبحانه وتعالي، ليجعله موضوع وصية مفعمة بالحنان مترعة بالمحبة لكل الإنسـانية **حين يقول لرسوله:**

﴿..وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الكهف].

ويعتـبر الله عـز وجـل التمايز طردًا لهـم وظلمًا فيقول للإنسـانية جمعـاء من خلال رسوله ﷺ:

﴿.. مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الأنعام].

ويسـير الرسـول وفق هذا التعليم السديد الرشيد العظيم. فلا يكاد يبصر الناس العاديين البسطاء هؤلاء قادمين نحوه فى أى ساعة.. فى أى يوم.. حتى يتلقاهم بحفاوة ويبسط لهم رداءه ليجلسوا فوقه ويقول: **أهلا بمن أوصانى بهم ربى.**

وذات يوم يمر به رجل بادى الفقر والمسكنة فيسأل النبى ﷺ جلساءه: "ما تقولون فى هذا؟" فيجيبون: ".. هو والله خليق إن خطب ألا يزوج - وإن تكلم ألا يصغى إليه".

ويصمت الرسول ﷺ حتى يمر رجل آخر عليه مخايل النعمة ومظاهر الثراء.. فيسألهم: ما تقولون فى هذا..؟؟ فيجيبون: هو والله حرى إن خطب أن يزوج وإن تحدث أن يستمع له".. فقال لهم الرسول ﷺ:

"والذى نفسى بيده إن الأول لخير ملء الأرض من مثل هذا".

"هنا رسـول، يحرر قيمة الإنسـان من الزيف، والزور. يحررها مـن الأوضاع الكاذبة المفتعلة، ويردها إلى مكانها الحق، فى جوار الخير، والعدل، والحق.. ولا يترك الرسـول فرصة لتكريم البسطاء والبؤساء إلا أهتبلها. **ويقف بين يدى الله داعيًا ضارعًا:**

(.. اللهم أحينى مسكينًا، وأمتنى مسكينًا، وأحشرنى فى زمرة المساكين..).

وإذا كانت الجنة تمثل فى دينه ودعوته، أرفع المثوبات، وأبقاها، وأقصى الدرجات العلي، وأسماها فقد أراد عن هذا الطريق، أن يكرم البسطاء والمساكين والمعوزين.. تكريمًا يجعل الأشراف والسادة يتطامنون، ويتمنون لو لم يكونوا أشرافًا أو سادة.. ماذا قال الرسول ﷺ فى هذا المقام قال:

(.. قمت على باب الجنة، فإذا عامة من دخلها المساكين..).

وهو يبحث دومًا عن البسطاء والبؤساء والضعفاء ليجالسهم ويقول: "أبغونى – أى اطلبوا لى – ضعفاءكم".

ثم يقرر الصفة الاجتماعية لهم، وكيف أنهم الكادحون، والمنتجون للثروة، وللدخل القومي.. فيقول: (.. **إنما تنصرون، وترزقون بضعفائكم**).

والرسول ﷺ حين يستعمل كلمة "مسكين" وكلمة ضعفائكم لا يعنى بالمسكنة الهوان.. ولا يعنى بالضعفاء العجزة، وإنما يعنى الناس البسطاء الذين يأخذون فى الكادر الاجتماعى مكانًا بسيطًا متواضعًا.. ولم يقتصر تكريم الرسول ﷺ للإنسان البسيط على تمجيده وتمجيد تواضعه، وحياته العاملة المتعففة.. بل شاركه هذه الحياة..

هذه بعض ملامح الاهتمام بإنسانية الإنسان العادى البسيط وتوقيره وسمو أحاسيسه وروحه.. فى كل من المسيحية والإسلام.. ولا ريب فى أنه يوجد بين الأديان السماوية مساحات اتفاق كبيرة مشتركة فكلها على سبيل المثال تؤكد على أتباعها الإيمان بالإله الواحد وتحرم على أتباعها القتل والزنا والسرقة والكذب.. والاعتداء على الأرض والعرض والمال والشرف.. الخ.. **إلا أن تميز أتباع اليهودية بالعنصرية البغيضة المتزمتة وجهودهم على النصوص والألفاظ** إلى أن تحجرت الأشكال والأوضاع فى الدين والاجتماع وغلبت المظاهر على كل شىء **إلى أن وصل الأمر إلى اعتبار أن الوصايا العشر تسرى عليهم فقط دون البشر.. لأن هؤلاء** البشر خلقوا فى أشكال آدمية فقط لخدمتهم وأن إلههم هو إله لبنى إسرائيل فقط وأنهم أبنائه وأحبائه فقط دون باقى البشر.. فحولوا الدين إلى دنيا، كل معنى الحياة عندهم فيها سمت وزينة وأبهة ومحافل وشارات وطغيان واستبداد.. دنيا آفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة الموظفة لخدمة ظلمهم ومطامعهم ومن وراء ذلك باطن هواء وضمير خواء.. كل هذا جعل مساحات الاتفاق بين المسيحية والإسلام كبيرة وجعلت المسيحية أقرب بكثير إلى الإسلام.. خاصة فيما يدور حول إنهاض الإنسان وسمو نفسه وضميره وتكريمه وتحريره من نمو غائيته.

obeikandi.com

إلا أنه يظل للإسلام دومًا ما يتفرد به عن كافة الأديان والرسالات الأخرى باعتبار أن الرسالة المحمدية هى الرسالة الخاتمة المصححة والمتممة لكافة الرسالات وما يدور حولها من مذاهب فكرية أو فلسفية

ومن بعض هذه الانفرادات وأهمها:

١- الإيمان بالله الواحد الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد:

فمن جوف بلاد القبائل والعشائر وتخبط الفرق الكتابية التى كانت تعيش فيها فى معتقداتها خرج الدين المصحح المتمم الذى يدعو إلى إله واحد أحد "رب العالمين" ورب الأمم الإنسانية جميعًا بغير فارق بينهم غير فارق التقوى والإيمان والعمل الصالح.. فقد جاء الإسلام بالدعوة إلى إله منزه عن أى لوثة شرك منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب، منزه عن التشبيه - فالله الذى يؤمن به المسلمون إله واحد أحد لا شريك له ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة التوبة].

وما هو برب شعب بعينه دون سواه ولكنه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [سورة الفاتحة].

٢ - الجهاد فى سبيل الله:

فالإسلام دين يفرض على معتنقيه إفشاء السلام فى العالم وإلى الاعتدال وعدم الغلو أو التطرف فأصل العلاقة بين الناس فى دستور الإسلام علاقة السلم والأمن والأمان.. وتجنب نزغ ووسوسة وخطوات شياطين الجن والإنس التى توسوس فى صدور الناس لدفعهم إلى التنافر والتناحر والبغض والاقتتال:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [سورة البقرة].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿..وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الأنفال].

ومن الأخطاء الشائعة عن الجهاد فى الإسلام والتى يروج لها كثيرًا خصوم الإسلام وأعدائه سواء عن سوء فهم أو سوء قصد هو انحصار الجهاد فى الإسلام فقط على الجهاد بالسلاح لحماية العقيدة والنفس والمال والعرض، فى حين أن الحقيقة الأهم التى يغفلها خصوم الإسلام هى أن رهبانية الأمة الإسلامية هى فى جهادها لإصلاح الكون وعمارته جنبًا

إلى جنب مع نشر الدين بسماحته وعدله.. خاصة أن للإصلاح فى الرؤية الإسلامية منهاج متميز عن نظائره فى كثير من الأنساق الفكرية والفلسفات والحضارات التى انتشرت وسادت خارج إطار الإسلام.. فالإصلاح الإسلامى ليس تغييرًا جزئيًا ولا سطحيًا، وإنما تغيير شامل وعميق يبدأ من الجذور ويمتد إلى سائر مناحى الحياة.. كما أنه لا يقف عند ميادين الحياة الدنيا، **وإنما يجعل من صلاح السبيل أساسًا إلى الصلاح والسعادة فيما وراء هذه الحياة الدنيا والانتقال إلى الحياة الآخرة.** والإصلاح لا يقف عند "الفرد" كما هو الحال فى المذاهب "الفردية" كما أنه لا يهمل الفرد، مركزًا على الطبقة كما هو الحال فى كثير من المذاهب والفلسفات الاجتماعية اليسارية – الوضعية والمادية – وإنما يبدأ الإصلاح الإسلامى بالفرد ليكون منه الأمة والجماعة.. لأن صلاح الفرد هو الذى يؤهله للقيام بالفرائض الاجتماعية والمشاركة فى العمل العام.. الذى تعود ثمراته على الجماعة المكونة للأفراد – بل لقد رفع الإسلام مقام التكاليف الاجتماعية فوق مقام التكاليف الفردية، عندما جعل إثم التخلف عن التكليف الفردى مقصورًا على الفرد وحده بينما إثم التخلف عن التكليف الاجتماعى شامل للأمة جمعاء.. بل ورفع الله عز وجل فى الإسلام ثواب التكاليف الفردية إذا هى فى جماعة واجتماع.. ولهذه الحقيقة. كانت رهبانية الإسلام هى الجهاد.. أى بذل النفس واستفراغ الجهد والطاقة فى أى ميدان من ميادين العمل الصالح فى الحياة الدنيا.. وجعل المولى عز وجل ذلك أساسًا للحساب والثواب والعقاب فى الحياة الآخرة..

ولقد سمى الرسول ﷺ جهاد النفس هذا بالجهاد الأكبر.. عندما كان يعود منصورًا بإذن الله من قتاله مع الكفار والمشركين فيردد (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهادالأكبر..)، فالجهاد ليس العمل القتالى وحده.. والرهبانية فى الإسلام هى أساسًا لمحو العزلة الفردية التى تدير ظهرها للأمة والاجتماع والصالح العام.. وإعلاء لمقام الإصلاح– بهذه المعنى– فى الإسلام قد ورد فى القرآن الكريم باعتباره "سنة" من سنن الله سبحانه وتعالى– وقانونًا من قوانين الاجتماع الحضارى لا تبديل له، ولا تحويل.. **فالتغيير الإصلاحى لابد له من أن يبدأ من "الذات" ليشمل الذوات، وسبحان من أنزل هذا الكلام:**

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الأنفال].

لأن الإصلاح سنة لها قوانينها كانت له "دورات تصل ما انقطع وتجدد ما رث وقدم، وترتفع بالأمم والحضارات من التراجع والانحطاط، فتعيدها إلى دورات التقدم من جديد..

أما ما يروج له أعداء وخصوم الإسلام من أن الجهاد فى سبيل الله فى الإسلام ينحصر فى الجهاد القتالى وعزوا انتشاره فى صدر الدعوة المحمدية إلى قوة السيف.. وهو قول قد يصح فى هذا الدين إذا أراد قائله بأنه دين يفرض الجهاد ومن أنواع هذا الجهاد.. الجهاد بالسلاح.. ولكنه خطأ بين وجرم إذا أريد به أن الإسلام قد انتشر بحد السيف أو أنه يضع القتال فى موضع الإقناع.. فما كان للإسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه سواء من أهل الجاهلية فى الجزيرة العربية الذين كانوا يتميزون بشدة البأس فى القتال، أو من أعتى إمبراطورتين فى التاريخ.. الرومانية والفارسية.. كانتا تحيطان به، **بل كان المسلمون فى صدر الدعوة هم ضحايا السيف وطرائد الغشم والجبروت.**

وحتى المعارك التى قاتل فيها المسلمون دفاعًا عن دينهم وأنفسهم وأرضهم وهم قليلى العدد والعدة والعتاد لم يكن النصر فيها حقيقة الأمر يعزى إليهم.. رغم شجاعتهم وفدائيتهم وبسالتهم فى القتال.. وإنما لعون الله عز وجل ومدده لهم.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، كما أن عدد المسلين اليوم بين أبناء الهند وباكستان وبنجلاديش وأندونيسيا ودول جنوب شرق آسيا والصين.. والقارة الأفريقية ليبلغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع.. وما روى لنا التاريخ من أخبار فتوحات استخدم فيها السيف فى هذه البلاد التى يعيش فيها مئات الملايين من المسلمين.. وإنما هو شمول العقيدة دون غيره هو العامل الذى يجمع إليه النفوس ويحفظ لها قوة الإيمان ويستغنى عن السيف وعن المال فى بث الدعوة كلما فتحت أبوابها أمام المدعوين إليها بغير عائق من سلطان المتسلطين.

والجهاد فى الإسلام بالسلاح يفرض على المسلم إذا ما اضطر إليه اضطرارًا حتميًا لا مناص منه دفاعًا عن دينه إذا ما تم الصد عنه أو عن التعريف به والدعوة إليه.. أو عن النفس والعرض والمال والأرض.. حينئذ يكون الجهاد واجب على المسلم وجوبًا لا هوادة فيه.. ولكن مع وجوبه فإن المسلم مأمور بأن يكتفى من الحرب بالقدر الذى يكفل له دفع الأذي، ومأمور بتأخيرها ما بقيت له وسيلة إلى الصبر والمسالمة ويتكرر هذا الأمر كلما تكرر الإذن بالقتال للدفاع عن النفس. وكل تحريض أمر به ولى الأمر فى هذا الخصوص ينبغى أن يستمد من التعاليم الإسلامية والنصوص القرآنية التى تشترط فى التحريض على تجنيد الجند، وحض العزائم بأن لم يبق لولى الأمر محيد عن هذه الحرب، وأنه لا غرض له منها إلا أن يكف بأس المعتدين على دينه أو على قومه، كما أنه ليس لولى الأمر إكراه على متطوع لقتال أو نجدة وإنما الحض فقط. وهذا هو موضع التحريض **فى قوله عز وجل:**

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ۝٨٤﴾ [سورة النساء].

أمـا أواصـر القتال فمـن آياتها فى القـرآن الكريم ما ورد فى سـورة البقـرة من قوله سبحانه وتعالى :

بســم الله الرحمن الرحيم: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝١٩٠﴾ [سورة البقرة].

بسـم الله الرحمــن الرحيــم: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ۝٩٠﴾ [سورة النساء].

بســم الله الرحمــن الرحيــم: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ ۝٦١﴾ [ســورة الأنفال].

أما المشــركون الذين لم يصدوا المســلمين عن دينهم ولم يبادلوهم بالعدوان فلا حرج على المســلم أن يبربهــم ويعدل فى معاملتهم وأن يعاهدهم ويوفى لهــم عهدهم إلى مدته وإلى أن ينقضوه مخالفين بما عاهدوا عليه **إن لم يكن له أجل محدود فقد قال جل وعلا :**

بســم الله الرحمن الرحيم: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨﴾ [سورة المتحنة].

وقال عز وجل :

بســم الله الرحمــن الرحيــم: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [سورة التوبة].

ولم يجعل الإسلام وفاء المعاهدين بعهودهم من تدبيرات السياسة أو ضرورة من ضروراتها التــى تجوز فيها المراوغة عند القدرة عليها، **بل جعلــه أمانة من أمانات العقل والضمير وخلقًا شريفًا يكاد الخارج عليه أن يخرج من آدميته.**

قال جل وعلا :

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا ۝٩١﴾ [سورة النحل].

ولا يبيح الإسلام بأى حال من الأحوال أن يكره قومًا بالقتال على الدخول فى الإسلام متى وصلتهم الدعوة إليه وتم شرح أصولها ومقاصدها إليهم.. إذ أن نص القرآن قاطع فى

تحريم الإكراه في الدين. لقوله سبحانه وتعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) ﴾ [سورة البقرة].

ومتى وقعت الحرب بالأسباب التى شرعها الإسلام فلا قتال لأحد غير المقاتلين، وعلى المسلم المقاتل أن يلتزم بأخلاق الفروسية بالحرب وأن يتبع وصايا الرسول فى هذا الأمر والتى تخلص كما أجملها الخليفة أبوبكر الصديق رضى الله عنه فى **العبارات التالية:**

(.. ألا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيرًا.. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم للصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له..).

فهل هناك قتال حوى قيمًا ومبادئ تحفظ للإنسان دينه وكرامته وعرضه وسلامته أشرف من هذا القتال؟! وإذا ترتب على ذلك أو إثره سلام فهل يوجد سلام فى العالم قام على العدل وحفظ كرامة الإنسان ودينه وماله وعرضه أروع من هذا السلام؟!.

٣ - الشورى وديمقراطية الإسلام:

لا ريب أن أسمى ما يمكن تعريف الديمقراطية الإنسانية به والمقصود منها إنها الحقوق المعترف بها للإنسان لكونه فقط إنسان. وأنها ليست خططًا عملية يوجبها تكافؤ القوى بين الطوائف وجماهير الناخبين كما يتشدق بذلك الكثير من مدعيها ورافعي لوائها.. وترتيبًا على ذلك فإنه لا يمكننا تصور قيام هذه الديمقراطية الإنسانية بغير عناصر ثلاث لا انفصال أو انفصام بينها:

(أ) المساواة والمسئولية الفردية.

(ب) قيام الحكم على الشورى.

(جـ) دستور معلوم من الحدود والتبعات.

وهذه العناصر الثلاثة قد أقرها ونادى بها الإسلام لأول مرة فى التاريخ الإنسانى.

فلقد قال لله عز وجل:

﴿ .. يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ (١٣) ﴾ [سورة الحجرات].

وقال جلا وعلا: ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ (٢١) ﴾ [سورة الطور].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ (٣٨)﴾ [سورة الشورى].

ونبى الإسلام هو القائل صلوات الله وسلامه عليه:

(.. لا فضل على عجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى..) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.

وهو القائل: (.. يا معشر قريش اشتروا أنفسكم. لا أغنى عنكم من الله شيئًا. ويا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئًا. يا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى. لا أغنى عنك من الله شيئًا..) أخرجه مسلم فى صحيحه.

وهو القائل ﷺ فى حجة الوداع: (.. أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس العربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أبيض فضل إلا بالتقوى..) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.

وهذه الديمقراطية الإسلامية لم تكن نباتًا فى الجاهلية ورثه الإسلام منها لأن الديمقراطية لم يكن لها وجود فى الجاهلية. كما لم تكن الديمقراطية الإسلامية كذلك نباتًا منقولاً من تربة أجنبية **لأن الديمقراطية الإسلامية ديمقراطية حقوق تلازم الإنسان وما نبت قبلها من الديمقراطيات فهو على أحسنه خطط عملية تمليها الضرورة على حسب الحاجة إليها**، وليس هناك إنسان يحق له أن يطلب هذا الحق إذا فقد القدرة عليه، لأن هذا الإنسان صاحب الحق فى الديمقراطية باعتباره إنسانًا مساويًا لسائر أبناء آدم وحواء لم يكن له وجود مفهوم قبل الدعوة الإسلامية والرسالة المحمدية.

لقد كان بحق الإيمان بالله والواحد الأحد رب العالمين وحق الإنسان... كلاهما معجزة إلهية تجلت بها قدرة الله على غير مثال سابق يتسلسل من أسبابه فى بيئته ولا حتى فيما جاورها من البيئات. فلقد نشأت الدعوة الإسلامية فى بيئة مريضة بأدواء العصبيات وضروب الضلال فى اختلاط من العبادات والخرافات، فلو جرت الأسباب التى ندركها فى مجراها المعهود فالدعوة التى تأتى من قبل هذه البيئة لا يمكن أن تدعو أبدًا إلى إله واحد يتساوى لديه جميع الناس، ولا أن تمنح الإنسان حقًا واحدًا يتساوى فيه جميع الناس.. ولكن الإسلام فى الرسالة المحمدية جاء بهذا وذاك: جاء بالدعوة إلى الإله الواحد الأحد رب العالمين، وإلى الحق الذى يتساوى فيه كل أبناء آدم وحواء، وكلتا المعجزتين صادرة من ينبوع واحد. فمن آمن برب العالمين لم يؤمن برب فريق دون

فريق من الناس. ومن آمن بالمساواة بين أعمال الناس وحقوقهم فلن يؤمن برب غير ربهم أجمعين. فكان الإيمان الحق برب العالمين لابد أن يصاحبه إيمان بحق العدل والمساواة وإيمان بالديمقراطية التى تقوم على هذا الحق فى الأرض وفى السماء.

والله سبحانه وتعالى فى عقيدة المسلم هو أحكم الحاكمين فهو لا يظلم أحدًا ولا يحاسب أحدًا بغير تكليف ولا يغير ما بالعبد حتى يغير ما بنفسه، ولا يأمر بأمر إلا كان هذا الأمر من شريعته (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) فى عباده، ومن نواميسه فى قضائه وقدره.. وسبحان من أنزل هذا الكلام:

بسم الله الرحمن الرحيم: (".. إن الله يأمركم بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى. وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظلم لعلكم تذكرون..").

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿..التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ [سورة التوبة].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)﴾ [سورة الفرقان].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣)﴾ [سورة النمل].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)﴾ [سورة النساء].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿..إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ (١١)﴾ [سورة الرعد].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [سورة فاطر].

وإذا كان هذا عهد الله على نفسه أمام خلقه فالثورة إذن التى جاء بها الإسلام فى عالم القيم والأخلاقيات ومبادئ العدالة والحق والمساواة والسمو الإنسانى.. الخ لهى أرفع وأوسع وأسمى من أن تحتسب من تلك الثورات التى تبتدئ وتنتهى فى نطاق الحركات الاجتماعية أو السياسية.. إنها ثورة كونية ترتفع بالحقوق والقيم فى نظر الإنسان

إلى أعلـــى فأعلى وإلى أكمل فأكمـل. فلا تبقى له من علاقة بين نوعه من أبناء آدم وحواء أو بالكون الذى يحتويه إلا ارتفعت بمقدار ما ارتفع عنده من حق ومن قيمة.

ومن عظمة الإســلام أن أوجب على الإنســان ألا يحرم نفســه من حقها فى الاستمتاع بالحياة وطيباتها ومحاســنها بوسطية رائعة لا يجور فيها حق الضمير على حق الاستمتاع بالحياة فهو مأمور بالســعى الدؤوب والعمل والاستمتاع بما يكسبه حلالاً بسعيه وعمله من نعمتها.. وأمره بذلك كأمره برعاية حقه من العدل والحرية والكرامة..

قال تعالى: ﴿..يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴿١٦٨﴾﴾ [سورة البقرة].

وقال سبحانه: ﴿..يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الأعراف].

وقــال جل وعــلا: ﴿.. يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴿٢٦٧﴾﴾ [ســورة البقرة].

ولا ريــب فــى أن الأمر بحق الحياة والاســتمتاع بطيباتها يتفرد به أيضًا الإســلام لأن الإنسان لم يتعود فى تاريخ الإنسان من أى دين غيره أن يأمره بهذا الحق، وإنما تعود من أديان كثيرة أن تنهاه عنه، وأن تجعل زهده فى الأرض شرطًا لخطوته فى السماء.

وغير خاف أن هناك بعض المفاهيم أثارها بعض المستشرقين والعلمانيين وخصوم الإسلام فى زماننا التى يجب تصحيحها مثل مفهوم الدين والدولة فى الإســلام فالبعض من هؤلاء يتصــور أن هنــاك خلافًا دائمًا بينهما إما عن ســوء فهم أو حقد دفين اســتحوذ على عقله ويتصور أن الحكومة على عهد رســول الله ﷺ والخلفاء الراشــدين.. كانت حكومة إلهية معصومة من الخطأ أو حكومة مقدســة، وأن الإمام بدوره يحكم نيابة عن الله فى الأرض، وأن له وحده حق التحليل والتحريم أو حق تفسير نصوص القرآن.

ونقول ردًا على ذلك وتصحيحًا له بأنه فيما يتعلق بحق تفسير نصوص القرآن وما يرتبه من تحليل وتحريم فترة نزول الوحى على الرســول ﷺ، فلا جدال أن هذا حق لا يماريه فيه أحد كونه رســول يوحى إليه من قبل رب العالمين لهداية الإنســانية جمعاء. أما فيما عدا هذا فالمتتبع لحياه ﷺ الخاصة والعامة يجد أنه كان أكثر الناس مشــاورة لمن معه من الصحابة امتثالاً لأمر الله له **فى قوله عز وجل:**

﴿.. وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴿١٥٩﴾﴾ [سورة آل عمران].

وقوله جل شأنه: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ۝٣٨﴾ [سورة الشورى].

كما كان يكلف نفسه ﷺ بما يكلف به أصغر رجل من أتباعه وهذه صورة من المشاركة وعدم التمييز حرص عليها لتكون قدوة لكل حاكم أو ذى سلطة، فقد كان المسلمون فى سفر وطلب ﷺ من أصحابه إعداد الطعام فقال أحدهم يا رسول الله على ذبحها، وقال آخر على سلخها. وقال آخر على طبخها فقال عليه الصلاة والسلام:

(.. وعلى جمع الحطب..) فقالوا: يا رسول الله: نكفيك العمل. قال ﷺ:

(.. علمت أنكم تكفوننى، ولكن أكره أن أتميز عليكم. **إن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزًا بين أصحابه..**).

أما فيما يتعلق بما بعد فترة الوحى وانقطاعه بوفاة الرسول ﷺ **فإن مفهوم المستشرقين والعلمانيين عن الدين والدولة فى الإسلام مفهوم خاطئ يرفضه مبدأ الاجتهاد فى الإسلام الذى يحول دون العصمة فى الرأى ويحفظ على الإنسان المسلم مستواه كبشر فى الخطأ والصواب، والنصوص الصريحة فى هذا كثيرة منها:**

قول الحق تبارك وتعالى عن الرسول ﷺ: (.. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ..) فالرسول معصوم ولا ينطق عن الهوى لما يوحى إليه من قبل الحق تبارك وتعالى إليه.

أما بعد انقطاع الوحى ووفاة الرسول ﷺ فلا عصم بقول الرسول ﷺ:

(.. كل ابن آدم خطاء، وخير الخطاءين التوابون..) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما.

وقد ترتب على ذلك وفهما وإدراكًا له وتأكيدًا عليه قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه وهو أول خليفة للمسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ: (.. إنى وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى..).

لذا فإن أى حكومة أو سلطة فى الإسلام لا تخرج عن دائرة الاجتهاد تدور بين الخطأ والصواب فى ممارستها لدورها **فلا توجد فى الإسلام حكومة إلهية فليس فى الإسلام رفعًا لإنسان** فوق مستواه الإنسانى وإنما يعرف إنسانًا يصيب ويخطئ فى تقديره ورأيه وعلمه، وكلنا يعرف أن امرأة مسلمة ردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه إبان خلافته ووجهته وقبل منها هذا التوجيه.

لذا لا توجد سلطتان فى الإسلام إحداهما سلطة رجال الدين والكهنوت تقيم من نفسها هيئة للمراقبة والإشراف والسيطرة والأخرى سلطة الدولة بهيئاتها ومؤسساتها المختلفة،

فالحكومة فى الإسلام حكومة إنسانية مدنية تعتمد فى دواوينها على المخططين والعلماء والمتخصصين من المسلمين وغيرهم فى كل جوانب الحياة مثلها مثل الحكومات الديمقراطية فى العالم.

كما أن الأمة فى الإسلام هى مصدر لجميع السلطات ومرجعًا لجميع المسئوليات إذا فهم الإسلام على صحيحه **فلا مصدر للسلطة العامة فى الإسلام غير الأمة، ولا مرجع فيه للمسئولية العامة غير الأمة،** ولا تعارض بين هذا وبين نصوص القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ. فإن النصوص والسنن لا تقوم بذاتها، بل تقوم بمن يفهمها ويعلمها ويعمل بها ويؤديها على الوجه المرجو وكل ذلك تشمله الأمة بما انطوت عليه فى خاصتها وعامتها.. فهى التى تأتمر بما لا يخالف الكتاب والسنة وهى المسئولة عن صوابها وخطئها حيث مرت به واتفقت عليه أو اختلفت فيه.

وأول ما تقرر من ذلك الحق كان فى حياة النبى ﷺ.. كما تمت الإشارة إليه من قبل. **فإنه كان مأمورًا من الله عز وجل بمشاورة أمته، ليرسى فيها الشورى سواء فى حياته أو بعدها، وكأن الأمر بينهم شورى فى كل شأن من الشئون غير التبليغ الذى خصه العلى القدير به** والذى لولاه لما كانت الدعوة إلى هذا الدين ولما قبض ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت ولاية الأمر بعد لمن توليه الأمة وتبايعه على الخلافة.. ولقد تولى من تولاها من الخلفاء الراشدين بالبيعة العامة، ولم يدع أحد بعدهم حقًا فى الولاية بغير هذه البيعة **ولا يوجد فى الإسلام حق بغير تبعة.. فحق الأمة وتبعتها فى الإسلام متكافئان متساويان فحقها تام وتبعتها تامة حقها تام لا يصدها عنه ذو سلطان بغير رضاها، وتبعتها تامة لا يعفيها من جرائرها عذر من الأعذار فهى متكافئة متضامنة فى حقوقها وتبعاتها** لأنها متكافلة متضامنة فيما حقوقها وتبعاتها لأنها متكافلة متضامنة فيما يصيبها من عواقب أعمالها.. قال تعالى:

﴿.. وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنفال].

فلا عذر لها فى ضلال تنساق إليه متابعة لأخيارها وكبرائها، فإن اللائمة تعود عليها فى ذلك كله كما عادت على الذين من قبلها.

قال جل وعلا: ﴿..وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [سورة البقرة].

وقال عز وجل: ﴿..قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴿٣١﴾﴾ [سورة التوبة].

فلقد أعفى الإسلام الأمة من طغيان الكهانة وفتح أمامها منارة للفكر الإنسانى لم تكن مفتوحة من قبله فجعل النصيحة حقًا لكل قادر على النصح من أولى الفهم والدراية وجعل العلم وظيفة عامة يطلبها من يشاء ويتولاها من يشاء ويتولاها من يشاء، ولا سلطان له على الناس غير سلطان القدوة الحسنة والإقناع بالحجة والبينة الصادقة وهو المسئول إن خان هذه الأمانة، والمستمعون له هم المسئولون إن سمعوها فلم يستجيبوا لندائها. قال تبارك وتعالى: ﴿.. وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة آل عمران].

وقال عز وجل: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة المائدة].

وإن كلمة "المنكر" وحدها لكافية من الدلالة على هذه الفريضة العامة.. فإنها من الإنكار الذى يشيع كثيرًا بين الناس فلا يجرى بينهم أمر من الأمور المنكرة إلا أنكروه ولم يتعارفوا عليه.. أما إذا اصطلحوا على المنكر وجهلوا الأمر بالمعروف فتلك هى المصيبة الكبرى وتلك أيضًا جريرتهم يحاسبون عليها ما دام كان فى إمكانهم أن يتجنبوها.. أى أنه لا ظلم ولا حيف فى هذه المسئوليات بين الأمم.. بل الظلم والحيف بعينهما أن يتساوى الصالحون والطالحون والعارفون والجاهلون.

ولا ريب أن هذه المسئوليات التامة المتناسقة بين طوائف الأمة وطبقاتها تمليها شرعية تامة متناسقة فى عقائدها وتكاليفها، ولولا هذا التناسق فى الدين الإسلامى لكان اضطلاع الأمة بمسئولياتها العامة من النقائض التى لا تعقل فى منطق الواقع، لأنها تسوم الناس من جانب ما تبطله من الجانب الآخر.. **إذ لا يحل فى قسطاس العدل أن تكون الأمة مصدرًا لجميع السلطات إلا إذا كانت مع هذا مرجعًا لجميع التبعات والمسئوليات.**

وإذا كان هناك اتفاق على أن الحاكم فى الأمة الإسلامية يكون بمبايعة أهل الحل والعقد له، **وهو ما يقابل الهيئات البرلمانية والتشريعية المنتخبة**.. وأنه وكيل الأمة وأنهم هم الذين يولونه سلطاته وأنهم يملكون خلعه وعزله.. إذا ما ثبتت عدم كفاءته لما يضطلع به من مسئوليات.

إلا أن الإســلام لم يفرض أســاليب وإجراءات محددة لانتخاب الأمة لمن ســيتولون أمورهــا تاركًا إياها لما يتناســب مع مقتضيات كل عصر وما يتفق معه من أســاليب فى تحقيق ذلك..لذا فإن ديمقراطية الإســلام تسـع كل الأســاليب العلمية الحديثة ســواء المتبوعة من الأمة الإسلامية أو الديمقراطيات الأخرى فى هذا الخصوص.

يقول المستشرق والكاتب الإنجليزى السير سى. بى. راى:

(.. **الإســلام أكثر الأديان ديمقراطية، فإنه المساوى للإنسانية**، وإنك لو كنت وضيعًا واعتنقت الإســلام لارتفعت حالاً إلى مســتوى أى مسلم آخر - وفى المسجد يصلى السلطان والأمير والشحاذ والعامل جنبًا إلى جنب - كما أن الإسلام لا يعرف معنى التمييز باللون، وإن الإسلام بطريقته المثلى استطاع التقدم من حدود المحيط الباسيفيكى إلى حدود المحيط الأطلنطى، وبعد هذا ســار الإســلام بخطوات واسعة فى شــبه جزيرة الملايو، ليس بسبب وجود السيف، ولكن بسبب سياسته الطيبة الحرة..).

ويقول الكاتب العالمى الكبير برناردشو:

(.. **الإســلام دين الديمقراطية وحرية الفكر، ودين البيع والشــراء، وفوق ذلك فهو دين العقلاء**..).

ويقول:

(.. ليس فيما أعرف من الأديان نظام اجتماعى صالح، كالنظام الذى يقوم على القوانين والتعاليم الإسلامية..).

ويقول:

(.. لقد وضعت دائمًا دين محمد ﷺ فى موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة فهــو الدين الوحيد الذين يلوح غلى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة، بحيث يســتطيع أن يكون جذابًا لكل جيل من الناس. ولقد تنبأت بأن دين محمد ﷺ ســيكون مقبولاً لدى أوروبا غدًا، وقد بدا كونه مقبولاً لديها اليوم..).

ويقول أيضًا:

(.. إن عدد المسلمين فى العالم لابد أن يزيد على عدد أتباع أى ديانة أخرى..).

ولا يفوتنا فى ختام هذه الكلمة عن الشــورى والديمقراطية فى الإســلام وحقوق الأمة أن ننبــه إلى أن كتــاب الله عز وجل "القرآن الكريم".. **يعنى بكلمة الأمة أن الخطاب الإلهى موجه إلى الأمم عامة والإنسانية جمعاء ولا تحجب عنه أمة**..

قال جل وعلا: ﴿..وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ (٢٠)﴾ [سورة آل عمران].

كما أن الشورى والديمقراطية فى الإسلام إذا كانت تنتهى بفرض إرادة الأمة إلا أنها لا ينبغى لها بأى حال من الأحوال أن تعلو إرادتها على إرادة الله عز وجل بإحلال ما حرمه أو تحريم ما أحله سبحانه وتعالى أو الخروج عن دائرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فلا يجوز لها بأى حال من الأحوال أن تتفق أرادتها على سبيل المثال على إباحة الشذوذ الجنسى أوالإباحة الجنسية، كما أخذت بذلك بعض ديمقراطيات الغرب بحجة احترام حق الإنسان فى الحرية الشخصية، كما لا ينبغى أن يكون المنتخبين المثلين لإرادة الأمة من الجهلاء أو سيئ السمعة والسلوك، بل ينبغى أن يكونوا من خير متعلميعها ومفكريها وشرفائها ومثقفيها – تطبيقًا لقول الله تبارك وتعالى:

﴿..قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٩)﴾ [سورة الزمر].

كما لا يفوتنا أيضًا التأكيد على أنه لا يحسب على الإسلام بأن المسلمين لم يحفظوا حقوقهم ولم يضطلعوا بتبعتهم وإنما قد يحسب عليه أنهم حفظوا الحق ثم ندموا على حفظة واضطلعوا تبعاته ثم ندموا على الاضطلاع بها، أو قد يحسب عليه أنهم قد ضيعوا الحق فلم يصبهم بلاء من تضييعهم إياه.. **ولكن الثابت يقينيًا حتى لدى أعتى خصوم الإسلام أنه عبر التاريخ الإسلامى كله لم يحدث من المسلمين ما جعلهم يندمون على اعتناقهم لهذا الدين الحنيف.. ولكن قد حدث منهم مرارًا ما يدعوهم إلى الخزى والندم على التفريط فى أوامر هذا الدين القيم ونواهيه.**

وسبحان من أنزل هذا الكلام فى محكم آياته:

﴿.. ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢)﴾ [سورة آل عمران].

٤ - حض الإسلام على العلم واحتضانه له:

من المعروف أن من العلوم التى أسبغ الله معرفتها على الإنسان ما يدرك بالخير الصادق، ومنها ما يدرك بالحواس ومنها ما يدرك بالوجدان، ومنها ما يدرك بالعقل عن طريق التجربة أو الاستنباط – ولقد عانق الإسلام العلم فى أول آيات نزلت بالقرآن الكريم إذ خاطب الله عز وجل الرسول ﷺ قائلاً:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [سورة العلق].

والتعليــم بالقلم فى الآيات مطلق غير مقيد بنوع خاص من أنواع هذه العلوم، وتشــريعًا للعلم أقسم الله بالقلم وما يسطر من العلم والمعرفة قائلاً سبحانه وتعالى:

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [سورة القلم].

وطلب من رســوله أن يضرع إليه داعيًا إياه ســبحانه وتعالى أن يزيده علمًا ومعرفة كما جاء فى آية سورة طه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ۝١١٤﴾.

وأضفى الله تبارك وتعالى على العلماء تشريفًا عظيمًا إذ جعلهم متساوين مع الملائكة فى الشهادة المثلى بوحدانيته كما جاء فى آية سورة آل عمران:

﴿.. شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ ۝١٨﴾ [سورة آل عمران].

وممــا يعلى العلــم ويرفعه ما جاء فى أوائل ســورة البقرة من حــوار بين الله عز وجل وملائكته فى جعله آدم عليه السلام خليفة فى الأرض يعمرها، فقالوا له متعجبين:

﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۝٣٠﴾ [سورة البقرة].

فإن من شــأنه الإفســاد وإراقة الدمــاء لا يصلح لتعمير الأرض، ونحــن أحق وأولى منه بالاســتخلاف، فقــال لهم المولى عز وجــل: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٣٠﴾ أى مما لم يحط به علمكم. ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ۝٣١﴾ [سورة البقرة]، فعجزت الملائكة – فقال عز وجل لآدم حينئذ: ﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ۝٣٣﴾ وأنبأهم بها، فقال الله لهم: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ۝٣٤﴾ أى ســجود تعظيم لإعجاز خلقه ﴿فَسَجَدُوٓاْ ۝٣٤﴾ وفى ذلك تشريف للعلم لا يماثله تشــريف، إذ أن الله تبارك وتعالى بأمره الملائكة وهى المخلوقات النورانية الســماوية التى تســبح دائمًا بحمده، أن تســجد لآدم جعل بذلك منزلة علمه بالأسماء فوق منزلة تســبيح الملائكــة وتقديســهم له، وهو إكبار للعلــم لا يدانيه إكبار – وعلى هداه كرر الرســول فى أحاديثه أن العلم من عبادة الله وأن العالم أرفع من العابد، ومن أحاديثه الشهيرة:

(.. فضــل العــالم على العابد كفضــل القمر ليلة البدر على ســائر الكواكب..) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

ورغب مرارًا فى طلب العلم، وقال:

"إنه فريضة على كل مسلم، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم".

وجاءه رجل من قبيلة مراد وهو فى المســجد، فقال له يا رســول الله إنى جئت أطلب العلم فقال ﷺ:

obeikandi.com

(.. مرحبًا بطالب العلم. إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتقله بأجنحتها..) رواه أحمد فى مسنده.

كما جعل العلماء فوق العباد جعلهم فوق الشهداء فى سبيل الله قائلاً ﷺ :

(.. للعلماء على الشهداء فضل درجة..) رواه أحمد فى مسنده – عن أبى هريرة.

كما نرى الله عز وجل فى سورة التوبة بعد أن يحض المسلمين على النفر مع الرسول ﷺ لجهاد أعداء الإسلام يحضهم على النفر إلى رسوله ليتعلموا على يديه تفسير القرآن وسنته وأوامر الشريعة ونواهيها، ويعلموا ذلك كله لقبائلهم وأقوامهم. يقول تبارك وتعالي:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [سورة التوبة].

وهو استنفار إلهى عظيم لتعليم شريعة الإسلام وعلومه ونشرها فى الأمة. وفعلا استجاب المسلمون لهذا النداء الإلهى وأصبحت المدينة دار علم كبرى هيأت لحركة علمية واسعة كان أستاذها ومعلمها فقيه الأمة الأكبر ومفسر قرآنها العظيم الرسول المصطفى ﷺ وتلاميذها صحابته.

ولم يعانق الإسلام العلم واحتضنه فحسب بل اتحد معه مكونًا علوم التفسير والحديث والفقه. **ومن المعروف أن الشريعة الإسلامية فى القرآن والسنة تتسع سعة كبيرة فلا تقف عند العبادات بل تشمل جميع جوانب الحياة للبشر واضعة لها القوانين فى نظام الأسرة، وبر الوالدين، والزواج، والعلاقة بين الزوجين، وعدة الزوجة المطلقة ونفقتها فيها ونفقة المرضع، وأنصبة الوارثين والوارثات، والتجارة والبيع والشراء، والزراعة واستثمارها، والدَّين وما ينبغى له من التوثيق والأشهاد والرهن والائتمان، ومصاريف الزكاة، وتحريم السرقة والقتل، والربا، والزنا، والخمر، والميسر، وأحكام الحرب والجهاد، وحقوق المحاربين، والمعاهدات، وقيام الحكم على الشورى والعدل، مع مبادئ خلقية وتهذيبية رفيعة.**

والقرآن الكريم بجانب العلوم الدينية ينوه بالعلوم الطبيعية، والعلوم الفلكية، والرياضية، والعلوم الطبية ويكثر الله جل وعلا من الإشارة إلى العلوم. وما أنعم الله به على الإنسان من بسطه الأرض له وجعله فيها جبالا حتى لا تميد به وأنهار جارية أنزل لها الماء من السماء ليرتوى منه الناس، ويستخدموه فى زرعوهم التى تنتج الحبوب وأشجارهم التى

obeikandi.com

تنتج كل الثمرات والفواكه من كل صنف بهيج مع ما بث فيها من الحيوانات وتذليله الإبل والخيل والدواب للإنسان، وتسخير البحر له لركوبه، وما يجرى فيه من السفن لتجارته ونفعه، مع ما يطير فى السماء من طير على كل لون. وما من عالم من عوالم الطبيعة إلا وذكر فى القرآن: ذكر عالم الأرض بجبالها، وعالم البحار، وعالم الطير، وعالم النبات، وعالم الأشجار، وعالم الحيوان والدواب.. وإذا تركنا العلوم الطبيعية إلى العلوم الفلكية والرياضية، وجدنا الله جل وعلا يذكر مرارًا بروج الشمس، والبروج جمع برج وهو الحصن والمنزل العالى، وهى منازل للشمس، تتجمع فيها نجوم لو وصل بينها بخيوط لخرج منها غالبًا ما يشبه صورة حيوان. والشمس تحل شهريًا فى منزل ثم تنتقل إلى منزل آخر، بحيث يصبح لها إثنا عشر منزلا بعدد شهور السنة، ثلاثة منها بروج الشتاء، وهى الجدى، والدلو، والحوت وثلاثة منها هى بروج الربيع وهى الحمل، والثور، والجوزاء، وثلاثة بروج الصيف وهي: السرطان، والأسد، والسنبلة، وبروج الخريف الثلاثة وهى الميزان والعقرب والقوس، والله ذكرها فى مثل قوله سبحانه وتعالى:

﴿..وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾ [سورة البروج].

للدلالة على عظيم ولا نهائية قدرته، ويقول جل وعلا فى سورة يونس:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۝٥﴾ [سورة يونس].

والضياء هوالنور الساطع. ومنازل القمر: هى مواضعه التى يظهر بها فى كل ليلة من ليالى الشهر، وهى ثمانية وعشرون منزلاً، مقسمة على بروج الشمس، وأسماؤها الثمانية والعشرون مذكورة فى كتب علماء الفلك مثل: السماك الأعزل، سعد الذابح، سعد السعود، الشرطان.. إلى غير ذلك.

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الأنعام: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۝٩٦﴾ أى أنه قدرهما منازل لنعلم الأوقات من الأيام والليالى، والشهور والسنين، لمعرفة معاشنا وضبط أمورنا ومعاملاتنا وما نريد من التاريخ – وهو أصل ممن أصول ازدهار الحياة والحضارة.

وفى القرآن الكريم إشارات مختلفة إلى العلوم الطبية مما جعل مؤتمرات طبية متعددة تنعقد لبيان ما فيه من إشارات ومعجزات طبية، من ذلك ما جاء فى سورة "المؤمنون" فى أطوار خلق الجنين فى بطن أمه. والله سبحانه وتعالى ينبهنا فى أول الآيات أن الإنسان

مخلوق ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [سورة المؤمنون] مشيرًا بذلك إلى خلقه لآدم من طين ثم يعرض أطوار خلقه للجنين قائلاً: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ [سورة المؤمنون] فى رحم أمه ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴿١٤﴾﴾ [سورة المؤمنون] وهى ردم غليظ ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴿١٤﴾﴾ [سورة لمؤمنون] وهى القطعة من اللحم ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ﴿١٤﴾﴾ [سورة المؤمنون] أى عظام تتكون داخلها ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة المؤمنون]. إذ نفخنا فيه الروح.

وهى معجزة طبية ربانية فى القرآن الكريم تصور الأطوار المختلفة للجنين حتى يتخلق كائنًا حيا وهو ما لم يعرفه العالم أو يكتشفه العلم إلا حديثًا منذ بضعة عقود.

وقد كان من تنويه القرآن الكريم بالعلوم الطبيعية والفلكية والطبية مع اتحاده بالعلم فى العلوم الدينية أكبر الأثر فى ملأ قلوب المسلمين شغفًا بالعلم فى مختلف أنواعه، وما إن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى أكب المسلمون على دراسة العلوم الدينية: علم التفسير، وعلم الحديث "السنة"، وعلم الفقه، وأخذوا يجاهدون أثناء وبعد الفتوح الإسلامية فى التعرف على ما لدى الأمم المستعربة من علوم الكيمياء والفلك والرياضيات والطب، **ولم تلبث أن قامت حركة كبرى من الترجمة لتلك العلوم ساعد على ازدهارها عقلانية الإسلام وحضه على التعايش السلمى والفكرى بين الأمم والشعوب وترتيبًا على ذلك تم وضع النحو وعلوم اللغة استجابة للشعوب المستعربة التى أحست الحاجة الشديدة لمعرفة أوضاع العربية فى الأعراب والتصريف للكلمات.. وأخذت حركات تعليمية كبرى تنهض نهضة واسعة فى العلوم الدينية والعلوم اللغوية والعلوم الأجنبية.. ولم يلبث المسلمون أن قادوا العالم علميًا وحضاريًا لمدة ستة قرون حتى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى.**

ولقد كان المسلمون يكبون على الكتب والعلوم فى عصورهم الأولى إنكبابا لم يعرف لأمة من الأمم بفضل القرآن والسنة وحثهما الشديد للمسلمين على التعليم، حتى لتعتبر الأمة الإسلامية أمة العلم، فقد شغف به جميع أفرادها وتجرد منهم كثيرون يريدون أن يجوزوا الأدب والعلم لأنفسهم، وكثير منهم منذ القرن الثالث الهجرى يؤلف حشدًا من الكتب مثل الجاحظ الذى ألف من الكتب العظام وعشرات الرسائل مما يعد مكتبة كبيرة، وكان محمد بن جرير الطبرى صاحب التفسير والتاريخ الضخمين لا يخلى يومًا من كتابة

عدد من الصفحات قرره على نفسه، كأنه فريضة يكتب في كل يوم أربعين ورقة، ولذلك لا تعجب أن نجد محمد بن زكريا الرازى معاصره المتوفى فى سنة ٣٢٠هـ يخلف ٥٦ كتابًا فى الطب و ٤٤ كتابًا فى الطبيعيات وعشرة كتب فى الرياضيات و ١٧ كتاب فى الفلسفة وثمانية فى المنطق و ٢٣ فى الكيمياء، **ومن أعظم كتبه الحاوى وهو دائرة معارف طبية وله كتاب فى الطب الروحانى** وكان يقابله فى الأندلس الزهراوى وله موسوعة طبية كبيرة فى ثلاثين مجلدًا.. وناهيك بأعمال ابن سيناء الذين تعد مؤلفاته ورسائله بالمئات، **وظل كتابه "القانون فى الطب" وموسوعة الزهراوى، وكتب الرازى تدرس جميعًا فى الجامعات الأوروبية من القرن الثالث عشر للميلاد إلى القرن السابع عشر.**

ويلاحظ أن هناك ظاهرة مهمة اقترنت بالعلم منذ نشأته فى العصور الأولى من الإسلام وهى أنه لم يكن مقصورًا على طبقات خاصة.. بل كان دائمًا عامًا لكل طبقات الناس، إذ كان مطروحًا باستمرار فى حلقات الشيوخ بالمساجد، وفيما نشأ بها مكتبات.. ومنذ أواخر القرن الثانى الهجرى تنشأ المكتبات العامة فى كل بلد إسلامى وتنشأ معها دكاكين الوراقين ولا مصاريف تطلب للتعليم، فالتعليم مجانًا من حق الجميع، والطبقات الشعبية تشارك فيه بحظوظ كثيرة، ودليل ذلك أن من يرجع إلى تراجم العلماء والأدباء سيجد أكثرهم من أبناء الطبقة العامة، وتصور ذلك ألقابهم مثل الحداد، والخراز والبزار والقواريرى والقواس، والنبال والعطار والمطرز، والطرزى، ونجد بين علماء الكلام أبا أحمد التمار وشعيب التلال، ونشأ أبو نواس غلامًا لعطار، ونشأ أبو العتاهية يبيع الخزف والجرار حاملاً لها على ظهره فى شوارع الكوفة، ونشأ الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان أحد نهيرات البصرة.. وهناك من النصوص ما يشهد بأن كثيرًا من العامة كانوا ينالون حظوظًا مختلفة من الثقافة، ولم يكن يحول بينهم وبينها أى حجاب إذ كانوا يروحون إليها ويغدون فى المساجد ومكتباتها ودكاكين الوراقين.. ومما يدل على ذلك أن نرى الجاحظ فى القرن الثالث الهجرى يقول: (".. وسألت بعض العطارين من أصحاب المعتزلة..") وكأن العطارين حينئذ كانوا أقسامًا منهم من يتبع المعتزلة ومنهم من يتبع غيرهم من أصحاب المذاهب، ولابد أن كان مثلهم بقية التجار وأصحاب الحرف، فهم يناصرون هذا المذهب أو ذاك أو هذا الأستاذ أو ذاك، ولكل أستاذ أتباعه لا من أوساط المثقفين فحسب بل له أنصاره أيضًا من العامة.

ومع معانقة الإسلام للعمل فى العصور الأولى للإسلام كان المتعلمون فى أوروبا يقلون قلة شديدة إذا لم تكن الكتب تعرف عندهم إلا فى الأديرة، بينما كانت عند المسلمين

مطروحة فى المساجد والمكتبات العامة ودكاكين الوراقين، وأخذت تنتشر المدارس عند المسلمين منذ القرن الرابع الهجرى يبثها السراة الذين كانوا يعدون أنفسهم حماة للعلم، وأخذ نظام الملك وزير السلجوقيين ينشئ فى كل بلد عراقى أو إيرانى مدرسة أشبه بجامعة.. إذ كان بها كل فروع العلم وألحقت بها مساكن للأساتذة والطلبة، ورصدت لهم رواتب لمعاشهم جميعًا.. وعمت هذه المدارس فى العالم العربى والإسلامى وأخذ ينشأ فى العلم سباق هائل بين العلماء فى كل بلد إذ كانت تعم فى الأمة وحدة علمية شرقًا وغربًا.. وكانت جوامع كبرى قد نشأت فى العالم الإسلامى واستحالت إلى جامعات تعلم فيها العلوم الدينية واللغوية على يد أعلام أئمة فى كل علم.. مثل جامع القرويين بفاس وجامع عتبة بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس والمسجد الأموى بدمشق، والجامع الأزهر بالقاهرة، وقد كفل فيه للطلاب من كل بلد إسلامى - وحتى اليوم - المسكن والنفقة وهذه النهضة العلمية العالمية التى قاد فيها المسلمون العالم وحدهم طوال ستة قرون بغلوا فيها القمة فى كل علم سواء فى العلوم الدينية واللغوية، أو فى علوم الأمم السابقة - بعد تطويرهم لها - من كيمياء وطبيعة ورياضيات وفلك وطب وهندسة.. ونفذوا مبكرين إلى إيجاد فلسفة إسلامية مزجوا فيها بين روح الإسلام والفلسفة اليونانية وتألق لهم فيها على مر الزمن فلاسفة عظام.. وكل ذلك بفضل ما بث القرآن الكريم والحديث الشريف فى قلوب المسلمين من شغف شديد بالعلم، لا يماثله شغف باعتبار أنه جزء لا يتجزأ من عقيدتهم الدينية.

واستيقظت أوروبا من سباتها الطويل فى القرن الحادى عشر الميلادى على رؤية هذه النهضة العلمية الإسلامية الباهرة، وسرعان ما أخذ كثيرون من شبابها يطلبون معرفتها فرحلوا إلى مدن الأندلس يريدون التثقيف بعلومها، وتعلموا العربية، وتتلمذوا على يد علمائها، وأكبوا على ترجمة نفسائها العلمية والفلسفية إلى اللاتينية لغتهم العلمية حينذاك فى ديارهم.

يقول ألدو بيلى فى كتابه "العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى":

(.. ترجمت كل كتب العلماء العرب العظام - على وجه التقريب - إلى اللاتينية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد.. وقد تدارسوها واستوعبوها وتمثلوها وأضاءت مسالكهم إلى نهضتهم العلمية الحديثة..).

ويقول المستشرق الفرنسى "أوجين يوغ" فى كتابه "يقظة الإسلام والعرب":

(..لا يمكننا فى أى حال أن نجزى العرب جزائهم الأوفى على خدماتهم للعلم والمدنية، فإنهم الأساتذة الذين تلقينا عنهم شتى العلوم والفنون، وأما نحن فقد كانت العلوم لدينا محصورة فى الأديرة والصوامع وفى نطاق ضيق جدًا، وعلاوة على ذلك فقد علمنا العرب دروسًا فى التسامح والكرم فإنهم لم يرغموا الشعوب على تغيير معتقدهم الدينى، كما كان المسلمون يحترمون جميع الأديان مهما ضعفت أو قل عدد معتنقيها..).

ويقول أيضًا:

(.. ولا يغرب عن البال أن من خصائص الدين الإسلامى السعى للسلم العالمى.. وأن من يمتزج بالمسلمين يتأكد أنهم يحملون قلوبًا بيضاء سليمة من كل حقد وضغينة وهم يسعون إلى تأليف القلوب والأرواح ولو أن الغربيين درسوا القرآن لمدوا أيديهم لمصافحة المسلمين بدلا من الجور عليهم ومعاداتهم..).

٥ - وسطية الإسلام:

تعرف اللغة العربية "الوسيط" بأنه اسم لما بين طرفى الشىء، وأن "أوسط الشىء" أفضله وخياره كوسط المرعى خير من طرفيه، وواسطة القلادة هى الدرة التى فى وسطها وهى أنفس خرزها، ويقال فلان من أوسط قومه أى خيارهم، وفلان وسيط قومه.. أو وسيط فى قومه إذا كان أوسطهم نسبًا وأرفعهم جدًا.

وفى الحديث الشريف: (.. خيار الأمور أوساطها..) وأنه كان ﷺ من أوسط قومه أى من أشرفهم وأحسبهم.

ولقد ذكر الله تبارك وتعالى التوسط فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم مثل قوله عز وجل:

﴿.. وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الفرقان].

وقوله سبحانه:

﴿.. وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الإسراء].

وتنفرد الأمة الإسلامية بين جميع الأمم الإنسانية بأن الله عز وجل جعلها أمة وسطًا لتكون خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر... وسبحان من أنزل هذا الكلام:

obeikandi.com

﴿..سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة البقرة].

ويلاحظ أن الآية الكريمة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ تبدأ بـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وهى تشبيه مما يدل على أنها مرتبطة بما قبلها فى صفة من الصفات كما يلاحظ أن الآية ١٤٢ من [سورة البقرة] التى سبقتها تتعلق بتحويل القبلة من اتجاه المسجد الأقصى إلى بيت الله الحرام بمكة.. ﴿..إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة آل عمران].

بعد تطهيره من دنس الأصنام.. وعما سيقوله السفهاء فى هذا الخصوص ولقد ثبت علميًا أن أوسط بقعة على وجه الأرض هى مكة المكرمة التى يتوسطها بيت الله الحرام فلو اعتبرنا الأرض دائرة تكون البقعة التى فيها بيت الله الحرام هو مركزها الذى أمرنا المولى عز وجل بالصلاة تجاهه، والطواف حوله داعين ومهللين ومرددين "لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، ولا شريك لك لبيك..

ومن المعروف علميًا أن القياس الصحيح لأى دائرة لا يكون إلا بتحديد مركزها ومنه يكون تصحيح الدائرة نفسها فكأن المولى تبارك وتعالى - والله أعلى وأعلم - يريد بوسطية الأمة الإسلامية أن تكون بعقيدتها هى المركز الذى ينطلق منه التصحيح والإكمال لكافة عقائد ومذاهب ما عداها من الأمم على دائرة الأرض.

وقد يلاحظ أيضًا أن الآية الكريمة ١٤٢ من سورة البقرة بدأت بـ "سيقول السفهاء" وهذا يعنى أن القول بعد نزول الآية الكريمة مستقبلاً.. وزمن مفتوح.. وهو ما حدث فعلاً بعد نزول الآية.. إذ تساءل المشركون والمنافقون واليهود عن علة هذا التحويل للقبلة.. متغافلين أن الأمر به كان من المولى عز وجل.

مما يستلزم واجب الطاعة بلا شك أو تردد أو جدل وهو الذى يحدث حتى الآن من تساؤلات كثيرة من بعض المستشرقين خصوم الإسلام عن علة هذا التحول.. مما يؤكد يقينًا على أن النبوءة المستقبلية عن قول السفهاء التى جاءت به الآية الكريمة كانت من لدن العليم الخبير.

obeikandl.com

والوسط هو خير الشيء وأفضله إذ يحمل نقطة التوازن التى يمكن منها القياس وتحديد المعايير المطلوبة والتصحيح والإصلاح ترتيبًا على ذلك.. فعندما تكون أمة الإسلام وسطًا تكون عقيدتها وما كلفت به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو المقياس التى تقاس إليه وعليه أحوال الأمم وعقائدها لتصحيح ما انحرف فيها.

وهو ما حدث فعلاً فلقد كان الإيمان بالله الواحد الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد رب العالمين هو الأصل الذين يثوب إليه من ينحرف عن العقيدة فى الإله ليجد فيه أكمل وأشرف وأصدق ما ينبغى أن يكون.

ومن ثم كانت العقيدة الإسلامية هى العقيدة المصححة المتممة لكل العقائد والمذاهب التى سبقتها أو كانت حولها منذ خلق آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة.

- فهى عقيدة كاملة صححت أديان الهند وعقيدتها فى الكارما والنرفانا التى فيها الإله مسلوب الذات لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة.

- وهى عقيدة كاملة صححت وتممت عقيدة العلم الأول بين فلاسفة الغرب التى بلغت أعلى ذروتها فى مذهب أرسطو حيث كان على خطأ فى فهم التجريد والتنزيه الذى ساقه إلى القول بكمال مطلق كالعدم المطلق فى التجريد من العمل والتجريد من الإرادة والتجريد من الروح.

- وهى عقيدة كاملة صححت وتممت ما جاء فى الديانات المصرية القديمة التى بلغت ذروتها فى الاقتراب من التوحيد فى ديانة آتون التى بشر بها الفرعون المنسوب إليه أخناتون.. فرغم أن أخناتون كان يصلى إلى خالق واحد إلا أن هناك شائبة من العبادة الوثنية علقت به من عبادة الشمس فكانت هذه الشمس الدنيوية رمزًا لإلهه ومرادفًا لاسمه فى معظم الصلوات. وهو ما يرفضه الإسلام جملة وتفصيلاً فى عقيدته فالإله الواحد الأحد فى الإسلام ليس له نظير أو شبيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ولا ينبغى على الإطلاق الرمز له بمخلوق من مخلوقاته ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة التوبة].

- وهى عقيدة كاملة صححت وتممت ما قبلها من العقائد والمذاهب الكتابية فى مفهوم الإله بأن العبادة تكون لله الواحد الأحد رب العالمين.. ورب الأمم الإنسانية جمعاء بغير فارق بينها غير فارق الصلاح والإيمان.. فما هو برب شعب بعينه دون سواه ولكن ﴿.. رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [سورة الفاتحة].. الذى خلق الناس جميعًا ليتعارفوا فلا فضل بينهم لعربى

على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى قال تعالى:

﴿.. يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ (١٣)﴾ [سورة الحجرات].

إله واحد أحد عدل لا يأخذ إنسانًا بذنب إنسان ولا يحاسب أمة خلفت بجريرة أمة سلفت ولا بدين العالم بغير نذير وهو العليم الخبير بأحوال عباده وسرائرهم. وسبحانه من أنزل هذا الكلام:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ (١٨)﴾ [سورة فاطر].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿.. تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٣٤)﴾ [سورة البقرة].

﴿.. وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا (١٥)﴾ [سورة الإسراء].

﴿..وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾ [سورة يس].

﴿..وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا (٨٩)﴾ [سورة الأعراف].

ودينه دين الرحمة والعدل تفتح كل سورة من كتابه المجيد بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) وهو عز من قائل:

﴿..وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (٤٦)﴾ [سورة فصلت].

والقائل سبحانه الذى وسعت رحمته كل شىء مخاطبًا رسوله الصادق الأمين

﴿.. وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ (١٠٧)﴾ [سورة الأنبياء].

إله منزه عن التشبيه وعن الشريك والولد مما تسرب من بقايا الوثنية إلى بعض الأديان والمذاهب الأخرى فهو القائل عز وجل فى محكم آياته ﴿..لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ (١١)﴾ [سورة الشورى].

والقائل سبحانه وتعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (٣١)﴾ [سورة التوبة].

والقائل جل وعلا: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢) لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ (٣) وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ (٤)﴾ [سورة الإخلاص].

فلا ريب أو جدال أن عقيدة الإيمان بالله الواحد الأحد رب العالمين والإيمان بأن لذاته جل وعلا هى غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات التى جاء بها الإسلام هى المتممة لعقائد وأفكار كثيرة موزعة فيما عداه من أديان أو مذاهب فلسفية

تـدور عليها حيث بلغت المثل الأعلى فى صفات الذات الإلهية مصححة للضمائر والعقول فى تقرير ما ينبغى لكمال الله سبحانه وتعالى بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس.. وبديهـى أن أمـة تعتنق مثل هذه العقيدة ومكلفة بالدعوة إليها بين الأمم الإنسـانية تكون شاهدة على هذه الأمم إذا ما بلغت الرسالة وأدت الأمانة.

قال تبارك وتعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف].

وقال عز وجل:

﴿ ..قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران].

ورغـم أن المـولى عز وجل قد حدد مكان الأمة الإسـلامية بين الأمم فى أنها أمة وسـط مما يعنى أنها خير أمة بصحة وسلامة وكمال عقيدتها.

بسـم الله الرحمن الرحيـم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة المائدة].

إلا أنـه تبارك وتعالى ربط خيرية هذه الأمة بوسـطيتها وكمال عقيدتها الإيمانية به عز وجل بشرطين لابد لهذه الأمة من استيفائهما هما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴿١١٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران].

وهذا أمر بديهى تتطلبه لوازم عقيدة بهذه العظمة وهذا السـمو، كما يتحتم منطقًا على أمة ينبغى عليها الدعوة إلى مثل هذه العقيدة السامية المصححة المتممة لعقائد الأمم الأخرى أن تـؤدى مـا عليها من تكاليف شـرعية محققة غاياتها فى تحقيق العدل والإحسـان وإيتاء ذى القربى والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى متحلية بما فرضه عليها الإسلام من أخلاقيات كبر الوالدين، وصلة الرحم، وكفالة اليتامي، وإفشـاء السـلام، وحسـن الجوار، ومعاشـرة الزوجة بالمعروف، والعدل، والأمانة، والصدق، والاعتدال، وعدم الغلو، والعفو والتسامح والصفح والإصلاح بين الناس... وملتزمة بما نهاها عنه الإسلام

وحرمــه عليها كالنهى عن العقوق والقتل والنفاق والزنا والسـرقة والإسـراف والغش والخيانة والظلم والمن والغيبة والنميمة والرياء والبذاءة والسـباب والعداوة والبغضاء.. وكل ما يتعلق بسـوء الخلق الذى يفسـد ما بين الناس ويفسـد المجتمع فتضيع الحقوق وتضمحل القيم.. حتى تكون على صراط مستقيم وتكون دعوتها بين الأمم صادقة وتحقيق شروط شهادتها على هذه الأمم وبأنها دعتها وهى على الصراط المستقيم فبداهة لا تقبل شهادة المعوج أو الضال أو المنحرف..

وإذا تأملنا هذه الآية الكريمة محل بحثنا:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ [سورة البقرة].

يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أنه لابد أن يكون فى مقدمة الأمة المكلفة بعقيدتها تصحيح عقائد الأمم الإنسانية والشهادة عليها بتمام ذلك فقهاؤها وعلماؤها، فهم بداية أول الشهداء.. فترى ماذا سيقولون أمام العلى القدير ورسوله الصادق الأمين فى هذا المشهد العظيم؟

وكلهم إلا النذر قليل القليل منهم لم تتجاوز رسـالتهم ودعوتهم حدود أمتهم ولم يكلفوا أنفسـهم عناء التوجه إلى هذه الأمم ومخاطبتها بلغاتها منتقين طيب الكلام من هذه اللغات سالكين منهج الحكمة والموعظة الحسنة فاشين السلام بينهم وبين هذه الأمم كما أمرهم به الإسلام شارحين لهم دعواهم إلى هذه العقيدة التى يستحيل على عاقل ردها إن تلمس حتى بعضًـا من سموها وعظمتها وإدراك غاياتها.. **يؤكد ذلك أنه فى زماننا هذا رغم محاولات التشـويش على هذه العقيدة وإلصاق تهم الإرهاب بها فإن الذين يقرأون عنها فى النذر اليسير فى الكتب التى تتحدث عن هذه الدعوة بلغاتهم يقبلون على اعتناقها.. والدفاع عنها أكثر من فقهاء وعلماء الأمة.**

كمـا أنه غير خاف أن ما يثير القلق والخوف فى هذه القضية أن الرسـول صلوات الله وسـلامه عليه سـيكون شـاهدًا وباعتبار أنه ﷺ قد بلغ الرسالة على أكمل ما يكون البلاغ وأدى الأمانــة خـير ما يكون الأداء ونصح الأمة على أسمى ما يكـون النصح تاركًا لها من لوازم الدعوة أكثر مما يكفى بكثير للقيام بها ونشرها بين كافة الأمم الإنسانية وبشهادة رب **العالمين فى قوله جل وعلا:**

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴿٣﴾ ﴾ [سـورة المائدة].

فهـــو ﷺ حجـــة علينا فما عليه إلا البلاغ المبين وقد بلغ أمته ما حمل من أمانة وأصبح على الأمة ما حملت وبالتالى فإن شـــهادة الرســـول ﷺ ستكون فى هذا المشهد العظيم علينا وليســت لنا (ويكون الرســول عليكم شــهيدًا) وقد يكون للعوام من المسلمين فى هذا المشهد العظيم عذرهم – والله أعلى وأعلم – وهنا يتكرر التساؤل.. ماذا سيقول فقهاء الأمة وعلماؤها فى هذا المشهد العظيم؟ وما هى حجتهم؟!

ما هى حجتهم ولديهم من لوازم ومبررات الدعوة إلى عظمة وسمو وشمول هذا الدين القيــم أكثر بكثير مما يكفى للأخذ بيد الإنســانية جمعاء إلى هــذا الدين القيم ودخول الناس فيه أفواجًا إذا ما أحسن شرحها بلغة المدعوين إليها وأحسن اختيار الوقت الملائم لتوجيهها والقائمين على شرحها وتوجيهها.

obeikandl.com